تمهيد

سياسة المملكة الخارجية قبيل تتويج عموري

- علاقة المملكة بالإمارات الصليبية.
- علاقة المملكة بالبابوية والغرب الأوربي.
- علاقة المملكة بالإمبراطورية البيزنطية.
- علاقة المملكة بالمسلمين في بلاد الشام ومصر.

وصلت الكيانات الصليبية مع منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى مرحلة حرجة في تطورها السياسي حينما صار بإمكان كل من الرها وأنطاكية وطرابلس أن تدير شئونها، وبدا أن ثمة ميل لتجاهل الروابط الإقطاعية التي ربطتها بالمملكة عقب قيامها مباشرة، عندما كان الخطر العام هو العامل الرئيس في اتحاد قواها، ولاريب أنه بدون سياسة عامة أو موحدة لتلك الإمارات فإنها كانت تُمثّلْ اتحاداً مهلهلاً[١]. وينبغي التفرقة عند معالجة علاقة المملكة بالإمارات الصليبية بين الإطار القانوني الذي يحكم علاقة الطرفين ببعضهما وبين الشكل الواقعي الذي كانت عليه علاقة كل منهما بالأخرى. فكما يقول إرنول Ernoul - مؤرخ القرن الثالث عشر - في وصفه للعلاقة بين المملكة والإمارات "إن أرض طرابلس وأنطاكية لم تكن تنتمي للمملكة[٢]"، وإن كان يصعب قبول هذا الرأي سوى من الناحية الظاهرية حتى يتسنى مناقشته على ضوء كتابات ذلك العصر.

إذ يعترف وليم الصوري William of Tyre بنقص الإتحاد داخل المملكة نتيجة لرغبة كل إمارة في التوسع لحسابها[٣]، حقاً كان ملك مملكة بيت المقدس الأول بين أقرانه فيما بين بارونات أنطاكية بالكاد ولكنه مارس في مناسبات معينة بعض التأثير والسيطرة على الأمراء، كما يبدو أيضاً أنه تمكن من تأمين الاعتراف بسيادته وإن احتاج ذلك إلى ملوك أقوياء في المملكة وأمراء ضعفاء في الإمارات، وهذا يستدعي الاقتراب من علاقة المملكة بالإمارات الصليبية وعلاقة الإمارات ببعضها البعض لتحديد الظروف التي فرض فيها الملك سيادته على الإمارات[٤].

---

(1) Baldwin, M .W., "The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143–1174", (ed.) *Setton*, I, pp.528– 529.

(2) Ernoul, *Chronique*, p.27.

(3) La Monte, John L., *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*, Cambridge MA: The Mediaeval Academy of America, (1932); repr. New York, Kraus, (1970), p.187; Ahron Ben Ami, *Institutional Lag*, p.413.

(٤) رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٧، ١٩٩٣م، جـ٢، ص٤٨٩.وانظر أيضاً:

ولا تقدم قوانين مملكة بيت المقدس شيئاً في هذه الإشكالية وذلك لأنها تحتوي على قوانين مملكة بيت المقدس فحسب، وهي حقيقة بليغة - كما يشير لامونت La Monte - لأنها توضح أن الإمارات لم تكن تحت سلطة قوانين مملكة بيت المقدس وأن المملكة لم تكن بؤرة الحكم والإدارة وإنما الإمارة، وذلك ما يتضح من حقيقة أنه كان لأنطاكية قوانينها الخاصة، وهي وإن كانت قد وضعت على غرار قوانين المملكة فإنها تختلف معها في بعض التفاصيل، إذ مثّلت المحكمة العليا في أنطاكية الجسم الأساس فيها مثلما الحال في مملكة بيت المقدس[١].

وتقع علاقات الملوك بالأمراء عموماً تحت نقاط متعددة يتصدرها اعتراف الأمراء بالسيادة للملوك ممثلاً في قسمهم بالخضوع وأخذهم علامات البيعة الإقطاعية، بجانب حق الملوك في التصرف بوصفهم أوصياء للإمارات خلال فترة صغر سن الأمير أو غيابه، وغالباً ما مارس الملوك هذا الحق بناء على دعوة فرسان الإمارات لهم من أجل التعاون في الأمور الحربية، ومن جهة أخرى تمتع الأمراء بحرية غير محددة في ممارسة شئونهم الخارجية وبخاصة في عقدهم المعاهدات والامتيازات علاوة على حقوقهم في الوصاية على القاصرين وزواج الوريثات وتأكيد المنح والمواثيق[٢]، وكان لدى الأمراء كبار موظفيهم ونظمت محاكمهم على غرار محاكم مملكة بيت المقدس، أما التبعية الإقطاعية والولاء فإنها بمثابة عقود شخصية وتعتمد

La Monte, *Feudal Monarchy*, p.187.

([1]) La Monte, *Feudal Monarchy*, p.188.

لم تكن نظم أنطاكية شبيهة بنظم مملكة بيت المقدس إلا ظاهرياً، إذ كان في أنطاكية ما في بيت المقدس من محكمة عليا وكبار الموظفين. ومع أن لأنطاكية قوانينها فإن الاتجاه العام لتلك القوانين يتفق مع اتجاه قوانين مملكة بيت المقدس، وبالرغم من ذلك فإنه يختفي تحت سطح هذا الاتفاق اختلافات عديدة؛ فولاية العرش في أنطاكية وراثية، ولم تتدخل فيها المحكمة العليا إلا عند تعيين وصي إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، على أن أمير أنطاكية احتفظ منذ البداية بالمدن الرئيسة في الإمارة وبقدر من أراضيها، ولم يبذل منح الأراضي إلا بحذر وإن بذلها فعند مناطق الحدود ولكنه كان يؤثر بذل إقطاعات المال، واتخذ المحلفون الذين يعينهم أمير أنطاكية مراكزهم في المحكمة العليا في الوقت الذي خضعت فيه محكمة الطبقة الوسطى (التجار والحرفيين) لممثليه الشخصيين. لمزيد من التفاصيل انظر: رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٢.

([2]) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.188–189.

قيمتها على قوة السيد (الملوك) في إجبار فصله (الأمراء) على قبولها أو الاعتراف بها.

ومن ناحية أخرى تناسبت تبعية الأمراء للملوك بصفة مباشرة مع هجوم خطير للمسلمين أو البيزنطيين وقوة ملك بيت المقدس وقدرة الإمارات على الدفاع عن نفسها[1]، وذلك ما يبدو من لمس الوتر الذي ربط المملكة بالإمارات. ففيما يخص الرها فبسبب تأسيسها قبل مملكة بيت المقدس فإن الأمراء الأول لها لم يكونوا متجهين إلى ملوك بيت المقدس[2]، وسرعان ما تطورت العلاقة التي ربطت الرها بالمملكة إلى علاقة شخصية، وذلك لأن الرها كانت كونتية مستقلة خلال حكم بلدوين أوف بويون (١١٠٠- ١١١٨م)Baldwin of Boillon لها الذي لم ترد إشارة عن اعترافه بالسيادة للبطريرك دايمبرت البيزي (١٠٩٩ – ١١٠٣م) Daimbert of Pisa مثلما فعل أخيه جودفري أوف بويون Goddfrey of Boillon[3] وبوهيمند الأول (١٠٩٨- ١١٠٤م) Bohemond I أمير أنطاكية، وعلى الرغم من ذلك فإنه حينما توج بلدوين الأول ملكاً على بيت المقدس عام ١١٠٠م/٤٩٤هـ فإنه أقطع الرها لبلدوين دي بورج الذي حكمها بصفته تابعاً إقطاعياً لملك بيت المقدس، وحينما توج بلدوين الثاني دي بورج (١١١٨- ١١٣١م) Baldwin de Bourg ملكاً على بيت المقدس فإنه منح الرها لقريبه جوسلين دي كورتناي (١١١٩-١١٣١م) Gosslin of Courtenay الذي بذل جهداً كبيراً كي يتوج بلدوين ملكاً على عرش المملكة وحينذاك اعتبرت الرها إقطاعاً من قبل ملك بيت

---

(1) ظهرت وظائف الكونستابل والقهرمان والمارشال والمستشار والحاجب في كل من أنطاكية وطرابلس والرها في وثائق الإمارات وفي السير الذاتية، ومن ناحية أخرى كان لدى أمراء الجليل ويافا وقيصرية موظفيهم، كما فعل ذلك البطريرك وجماعات الفرسان الداوية والإسبتارية والأمراء.راجع في ذلك:

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.189.

(2) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.190–191.

وانظر أيضاً: رنسمان: لحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٠ - ٤٩١.

(3) وقد رفض جودفري ارتداء التاج الملكي في المدينة التي عاش فيها السيد المسيح واكتفى بارتداء تاج من الشوك (الصبار).

المقدس[1].

ومن ناحية أخرى كان الأمير جوسلين الثاني (١١٣١-١١٥٠م) Gosslin II فصلاً لأمير أنطاكية بما يتضح من مراسلة جوسلين الثاني للأمير ريمون بواتييه (١١٣٦-١١٤٩م) Raymond de Poitiers أمير أنطاكية في الفترة التي هاجم فيها زنكي الرها عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ "وأنفذ الرسل[2] إلى مولاه الإقطاعي أمير أنطاكية متضرعاً إليه في مذلة وراجياً إياه الرجاء الحار أن يتعاطف معه في محنته ويخلص الرها من الرق الذي يتهددها[3]".

وعلى العكس من الرها كانت طرابلس - التي لم تؤسس إلا بعد تأسيس المملكة - إقطاعاً من قبل الملك منذ نشأتها، إذ بذل أميرها برتراند Bertrand يمين الولاء للملك بلدوين الأول عام ١١٠٩م/٥٠٣هـ، وقد سعى بعض أمراء طرابلس فيما بعد إلى نبذ طاعة ملوك بيت المقدس مما تطلب تدخل الملوك بالقوة لتأديبهم ومثال على ذلك ما قام به الأمير بونز (١١١٢- ١١٣٧م) Pons فيما بعد من نبذ طاعة الملك بلدوين الثاني عام ١١٢٢م/٥١٦هـ رافضاً تأدية الخدمة الملكية إليه طبقاً ليمين الولاء الذي في عنقه تجاه الملك، فجمع الأخير قوى مملكته لمحو العار الذي ألحقه به بونز وكادت تحدث حرباً أهليه لولا تدارك الوسطاء ورضوخ الأمير بونز للملك بناء على قرار محكمته العليا[4].

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٠٩ – ٢١٠، ٣٣٦، ٣٤١.وانظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٠. راجع أيضاً:

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.190–191; La Monte," *To what extent* was the Byzantine Emperor the Suzerain of the Crusading States?" in *Byzantion*, 7, (1932), p.256.

(٢) يعني أمير الرها.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٠. انظر أيضاً:

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.190; La Monte, *To what extent*, p.256.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٦٢؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي في الشرق العربي (الاستيطان الصليبي في فلسطين) ترجمة: قاسم عبده قاسم، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م، ص٢٨٠. انظر أيضاً:

وحينما لمس بونز ضعفاً من الملك فولك دأنجو (١١٣١-١١٣٤) Fulk of Anjou - الذي اعتلى عرش المملكة عقب وفاة الملك بلدوين الثاني - فإنه عرقل تحرك الملك فولك وهو في طريقه إلى أنطاكية عام ١١٣١م/٥٢٦هـ، والحق أن الملك كان في طريقه للقضاء على مؤامرة الأميرة أليس Alice التي ساعدها كل من جوسلين الثاني أمير الرها وبونز أمير طرابلس؛ وذلك لانتزاع الوصاية للأميرة أليس على ابنتها كونستانس Constance، ولاريب أنها كانت لطمة قوية للملك فولك بأن يمنعه تابعه من المرور بأراضيه علاوة على تآمره ضده مما دفع الملك إلى معاقبته[١].

وفيما يخص موقف أنطاكية من السلطة الملكية فإن وضعها كان مختلفاً إلى حد ما، إذ يتضح من مراجعة مصادر القرن الثاني عشر أن بوهيمند الأول لم يُقرّ لأحد بالسيادة على إمارته عدا البطريرك دايمبرت مثلما لم يُقر كل من تنكرد (١١٠٠-١١١٢م) Tancred وروجر (١١١٢-١١١٩م) Roger - الوصيان على أنطاكية بالتوالي - بسيادة مملكة بيت المقدس وهما من عينتهما المحكمة العليا في أنطاكية، وحينما قُتل روجر في معركة ساحة الدم ١١١٩م/٥١٣هـ[٢] فقد سنحت الفرصة لتولى الملك بلدوين الثاني الوصاية على الأمير الصغير بوهيمند الثاني (١١١٩-١١٢٦م/٥١٣-٥٢٠هـ) Bohemond II[٣].

غير أن الوصاية لم تستند هنا - فيما يبدو - إلى حق شرعي وإنما جرت بناء على دعوة المحكمة العليا في أنطاكية للملك[٤]، وقد أخذت البلاغة بفولشر أوف شارتر

La Monte, *Feudal Monarchy*, p.191.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٩٦–٩٩.

(٢) عن تفاصيل معركة ساحة الدم التي قُتِل فيها روجر أمام المسلمين انظر: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٧٢ – ٢٧٢؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهارسه وقدم له: هـ.ف. آمدروز، ليدن، ١٩٠٨م، ص٢٠٠-٢٠١؛ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص٤٠-٤١؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر أباد، ١٩٥١م، جـ٨، ص٧٣-٧٩؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٤٨-٣٥٢.انظر أيضاً:حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص١٣٩-١٤١.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٦.

(٤) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٠.

إلى نقطة بعيدة في تعبيره عن وضع الملك في أنطاكية بأنه كان ملكاً عليها[١] وليس هذا واقعياً؛ لأن وليم الصوري الذي كان حريصاً أكثر من غيره على المملكة وسطوتها يُقر صراحة وضعية الملك في أنطاكية قائلاً "أما الإمارة فلم تزد على أن تكون أرضاً عُهد إليه برعايتها.....حتى جاءها بوهيمند الصغير[٢]"، ولم يقتصر ذلك على وليم الصوري وإنما أيده الأمير أسامة بن منقذ أحد المؤرخين المسلمين الذي خالط المجتمع الصليبي في تلك الفترة وكان قريباً مما يدور به من أحداث[٣].

وسنحت الفرصة لتدخل الملك بلدوين الثاني مرة أخرى في شئون إمارة أنطاكية بناء على طلب رعاياها وبوصفه والد الأميرة أليس وجد الأميرة كونستانس Constance وريثة الإمارة وذلك عقب مقتل بوهيمند الثاني في سهول قيليقية عام ١١٣١م/٥٢٦هـ، وقد حاولت الأميرة أليس الحيلولة دون وصول أبيها الملك بلدوين الثاني إلى أنطاكية رغبة في الحفاظ على مقاليد الإمارة في يدها بعيداً عن وصاية أبيها الذي تمكن من القضاء على تمردها بمساعدة جوسلين وفولك دانجو وأبعد ابنته عن الإمارة[٤]، وعندما استجد في أنطاكية ما دعا محكمتها العليا ورعاياها إلى استدعاء الملك فولك لتولي الوصاية فإنه توجه إلى أنطاكية وعالج أمورها، ولم يحمل تدخل الملك في الإمارة صفة السيادة وإنما لكونه أقرب فروع الذكورة إلى الأميرة كونستانس باعتباره زوج خالتها[٥].

---

(١) فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٧٥. بالغ فولشر بشدة حينما ذكر أن بلدوين الثاني تُوج ملكاً على رعايا أنطاكية وأنه أصبح صاحب مملكتين هما أنطاكية وبيت المقدس، وهذا ما لم يحدث ولم يوافقه فيه غيره، وأقر هو نفسه في موضع تال أن الملك سلم أنطاكية إلى الأمير بوهيمند الثاني "واجتمع الملك ببوهيمند في الحال، وبعد الاجتماع أعاد الملك لبوهيمند أرضه كلها وزوجه إحدى بناته...وبعد الانتهاء من هذه الأمور عاد الملك إلى بيت المقدس".انظر: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٣٤٨.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٥٩–٣٦٠.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٢٠-١٢١.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٣–٧٦.

(٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية،جـ٣، ص١٠١. وأيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٠. وكذلك:

وشبيه بذلك أيضاً أنه حينما كبرت الأميرة كونستانس فإن بارونات أنطاكية بحثوا لها عن زوج مستشيرين مرة أخرى بنصيحة الملك فولك وكان ذلك نزولاً على طلب المحكمة العليا لا لكونه سيداً على الإمارة، فاقترح عليهم الملك فولك الأمير ريمون بواتييه الذي كان آنذاك في بلاط الملك هنري الأول Henry I ملك إنجلترا، فقدم الأمير إلى بلاد الشام وأصبح زوجاً لكونستانس وأميراً لأنطاكية عام ١١٣٦م/٥٣١هـ، هذا بالرغم من المشاكل الكثيرة التي سعت إليها الأميرة أليس للحيلولة دون وصوله[١]، ولم يقتصر الأمر على أليس وإنما تخطاها إلى الإمبراطورية البيزنطية التي زعم إمبراطورها يوحنا الثاني كومنينوس (١١١٨-١١٤٣م) John II Comnenos ما لإمبراطوريته من حقوق سيادية على أنطاكية وأنه لأجل ذلك لابد أن يُستشار في أمر زواج أميرتها، وقاد جيوشه وحاصر الإمارة فلم يجد ريموند بداً من الاعتراف بالادعاءات البيزنطية وبتبعيته للإمبراطور يوحنا الثاني، ولم يكن ذلك إلا بناء على نصيحة الملك فولك الذي كان يرى الصواب في ادعاءات بيزنطة في أنطاكية[٢].

تلك أهم الملامح العامة لعلاقات المملكة بالإمارات الصليبية، ويتضح من العرض عدة دلائل منها أنها كانت تتوتر أحياناً ولفترات متفاوتة، بيد أن التوتر لم يدم إلا عقب وفاة الملك فولك، حيث كان بقاء الفرنجة في الشرق معتمداً في أغلب الأحيان على الحشد الكلي للإمارات الصليبية تحت جيش المملكة لصد الأخطار الخارجية، ولكن لم تدم تلك السمة أيضاً؛ بسبب ميل الإمارات الصليبية إلى التخلي عن القيام بهذا الدور في الفترة التي تلت عصر الملك فولك[٣]. وقد تفاعلت عدة عوامل لإحداث تلك

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.192–193.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٢٨–١٢٩.

(٢) راجع في ذلك: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٤٦–١٧٠.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٧٣–٧٦، ١٠١، ١٢٨–١٢٩، ١٤٦ – ١٤٧، ٢٣٨–٢٤٠، ٢٩٢- ٢٩٣، ٣٣٧–٣٤٦؛ وانظر أيضاً: أحمد رمضان: "حول وسائل الصراع المسلح الإسلامي الصليبي في العصور الوسطى"، مجلة المستقبل العربي، عدد ٨، ١٩٨٧م، ص٦٦. راجع أيضاً:

النتيجة، منها: ضعف شخصية الملك فولك وتواكب بعض الأزمات التي تعرضت لها المملكة في عصره، ترتب عليها ضعف روابط المملكة بالإمارات، كما ظهر بشكل جلي - في عصره وعصر ابنه بلدوين الثالث - دور حكومات النساء، مما لم يكن مرغوباً في تلك الفترة التي واكبت اتحاد أغلب القيادات الإسلامية تحت جبهة أو جبهتين في بلاد الشام والعراق؛ فظهر دور الملكة ميليسيند على نحو واضح في المملكة وما ترتب على هذا التدخل من مشاكل جمة بينها وبين ابنها بلدوين الثالث[١].

ولا ينبغي أن يُنسى أيضاً دور أميرات كل من أنطاكية والرها وطرابلس في الأمور السياسية آنذاك؛ فلعبت كونستانس ومن قبلها أمها أليس دوراً كبيراً في الحد من نفوذ الملكية داخل إمارتها بيد أنها فشلت ولكنها انعكست سلباً على قوة الملكية، وكان للأميرة بياتريس Beatrace – زوجة جوسلين الثاني أمير الرها - دور لا يستهان به في تسليم إمارتها للبيزنطيين، وكادت هوديرنا Hoderna - زوجة ريموند الثاني أمير طرابلس - أن تؤدى الدور ذاته في طرابلس[٢]، ثم كانت المشكلة الأكبر في تحكم الملكة ميليسيند بمقدرات المملكة، مما انعكس على أمراء الإمارات الذين لم يرق لهم الاعتراف بسيادة النساء، ثم لم يمض الكثير حينما استرد زنكي الرها عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ مبرهناً على عدم التوافق والتفاعل بين الإمارات الصليبية بعضها ببعض وبين المملكة ذاتها وبخاصة ما أبداه أمير أنطاكية من تخاذل تجاه أمير الرها في تلك المحنة[٣].

Aharon Ben-Ami, *Institutional Lag*, pp.413-414 .

(١) عن أحداث الحرب الأهلية التي اشتعلت بين الملكة ميليسيند وابنها الملك بلدوين الثالث وآثارها على المملكة راجع:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٣١–٣٤٣.

(٢) عبد اللطيف عبد الهادي السيد: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد بلدوين الثالث (١١٤٣ – ١١٦٣م)، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس، ١٩٩٠م، ص٢٤٥؛ محمد محمد عبد الحميد فرحات: "الدور السياسي لبنات الملك بلدوين الثاني في الشرق اللاتيني"، دورية الإنسانيات، كلية الآداب، فرع المنصورة، جامعة الإسكندرية، عدد١٣، ٢٠٠٣م، ص٢٩١–٣٢٥.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٣٦؛ محمد عبد الحميد: الدور السياسي،

ومن العوامل الأخرى التي تداخلت مع سلطة المملكة في الإمارات الصليبية وحدّ من نفوذها إلى حد بعيد ردة الفعل الإسلامية التي بدأت ضعيفة وإن اتخذت مع عصري فولك وبلدوين الثالث اتجاهاً كان له أثره على العلاقة بين المملكة والإمارات، وتمثل هذا الاتجاه جلياً في تركيز الجهود الإسلامية في الاستيلاء على الرها، وحينما تم ذلك بدأت تهاجم أنطاكية وتوابعها شرقي نهر العاصي، وتمثل الغرض الأساس من تلك الجهود في عزل الإمارة عن المملكة حتى يصعب عليها أن تلبي نداء المملكة، وبمعني آخر سعت القوى الإسلامية إلى تهميش دور أنطاكية السياسي والحربي في بلاد الشام، وتأكدت تلك الفرضية عقب استيلاء المسلمين على دمشق والمدن الصغرى في وسط بلاد الشام، وأثمرت هذه السياسة في عصر الملك عموري الأول، بحيث لم يتلق أي مساهمة فعلية سواء من أنطاكية أم طرابلس في حملاته على مصر.

ولم يقلّ دور بيزنطة عما قام به المسلمون تجاه الكيانات الصليبية، بل ربما كان مكملاً لما سعى إليه المسلمون وإن كان دون ترتيب مسبق، حيث كان للادعاءات البيزنطية في أنطاكية - كما سيتضح في الصفحات التالية - دور كبير في علاقة المملكة بها، بحيث كادت المخاوف البيزنطية على أنطاكية تبدو في كتابات يوحنا كيناموس John Kinnamos في وصفه لما يقوم به الملك بلدوين الثالث لصالح الأنطاكيين بأنه كان يطمع فيها وأنه يسعى لإبعاد بيزنطة عنها[1]، وهو وإن لم يكن أمراً صحيحاً بيد أن بيزنطة كانت تحول بتلك الدعاوى دون استشراء قوة المملكة في الإمارة تحاشياً منها لاتفاق كلمة اللاتين في الشرق تحت صوت واحد - وهو الملك - ولأجل ذلك اتخذت بيزنطة الوسائل التي تمكنها من منع حدوث أمر كهذا.

ويبدو أنه لم يكن مقدراً للحماسة التي قدم بها الفرنجة الأوائل الدوام التي كان دورها كبير فيما سبق في تكاتف الإمارات مع المملكة للتغلب على أعداء المملكة الكثيرين، وبمرور الوقت تعلم الفرنجة أن يعيشوا في سلام مع جيرانهم، مما يعني اتجاه الإمارات في علاقاتها الدبلوماسية الخارجية إلى حيث ترغب، فعقدت المعاهدات

ص٣٠٩.

([1]) Kinnamos, *Deeds*, pp.139–140.

مع المسلمين والبيزنطيين والأرمن ربما دون الرجوع إلى الملك[1]، ثم جاءت الحملة الثانية لتكشف عن الحقيقة الصامتة التي وصلت إليها أحوال الصليبيين في الشرق حينما كشفت لهم عن أسباب ضياع الرها الحقيقية[2].

وفيما يخص علاقة المملكة بالبابوية فإن مملكة بيت المقدس لم تعترف بالسيادة لأحد سوى البابا الذي أثار الجيوش ووجهها إلى الشرق حتى تأسست المملكة، وكان البابا أربان الثاني Urban II يرى في مملكة بيت المقدس بوصفها دولة تحكمها الكنيسة الرسولية دليلاً حياً في الشرق على سيادة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وقوتها وذلك في محاولات الكنيسة لتحقيق هيمنة عالمية، فكانت المملكة اللاتينية في الأراضي المقدسة ببطريرك لاتيني انتصاراً للسياسة البابوية[3].

وكان الصليبيون جنود الكنيسة الذين حصلوا على الامتيازات والإعفاءات الكنسية، وكانوا أفصالاً للكنيسة وجنوداً في الجيش الذي وجهته البابوية، ولذا فإنه حينما انتخب الدوق جودفرى بصفته أول حاكم للمملكة الجديدة فإنه حرص على الاعتراف بمزاعم الكنيسة ورفض لقب ملك مكتفياً بلقب "البارون المدافع عن الضريح المقدس"، ومن جهة أخرى أدى جودفري قسم الولاء الإقطاعي للبطريرك دايمبرت Daimbert of Pisa - ممثل البابا أربان الثاني، ثم ثار الصراع بين الملكية

([1])La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.189–190.

([2]) راجع: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣، ٣٠٥ ـ ٣١٣، ٣١٦ ـ ٣١٧؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، نشره ووضع فهارسه وقدم له، هـ.ف. آمدروز ، ليدن ، ١٩٠٨، ص٣٢٤ ـ ٣٣١. وانظر أيضاً:

Pope Eugenius III, *Letter to Louis VII of France and his Subject*, in The Crusades Documents of Medieval History, vol.4, (ed.) Smaith, pp.57–61.

([3]) La Monte, *Feudal Monarchy*, p.203.

كانت البابوية تسعى إلى السيادة العالمية في محاولة منها لإعلاء كعبها على الإمبراطورية الألمانية التي لم يذهب من مخيلة أباطرتها إذلال كانوسا عام ١٠٧٦م ولم يغب عن ذهنهم أنهم خلفاء الأباطرة الرومان، ومن ثم السيادة العالمية أيضاً والسيطرة على البحر المتوسط، وكانت خطتهم في ذلك إخضاع القسطنطينية وإيطاليا وصقلية وهذه الأخيرة تعني العداء لملوك النورمان والصراع مع البابوية التي كانت سيدة المنطقة منذ عام ١٠٥٩م. انظر: رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٩٠-٩٤.

والبطريركية في محاولة خلق دولة للكنيسة في الأراضي المقدسة، بحيث عكست بطريركية دايمبرت في الشرق اللاتيني الصفة المألوفة لصراع البابوية مع الإمبراطورية في الغرب الأوربي[١].

وقد سعى البطريرك دايمبرت إلى استخدام بوهيمند الأول وتنكرد الأنطاكي سيوفاً لمبارزة بيت بويون Bouillon وكان هدف بوهيمند الأول من مساندته للبطريرك أن يمنحه الأخير اللقب الشرعي لحكمه في أنطاكية، ثم تطور الصراع بين الملك بلدوين الأول وأرنولف Arnulf من ناحية وبين البطريرك دايمبرت من ناحية أخرى، وليس بخاف سعي دايمبرت لمنع ارتقاء بلدوين الأول للعرش والصعوبات التالية التي نشأت بينهما[٢]، بيد أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ أغلق انتخاب أرنولف للبطريركية عام ١١١٢م/٥٠٦هـ فترة الصراع ولم يحاول البطريرك بعدها إعادة تأكيد سيادته أو مناوئة السلطة الملكية حتى عصر عموري[٣].

ولا ريب أن البابوية سعت إلى الموازنة بين الملك والبطريرك حتى يظلان تابعين لها وبخاصة البطريرك؛ وذلك خوفاً من استقلال الأخير ببطريركية مملكة بيت المقدس والوقوف بها في مواجهة البابوية ذاتها، وكان لتلك الهواجس دواعيها؛ إذ صارت بطريركية مملكة بيت المقدس غنية بالهبات التي تأتيها من كل أنحاء العالم المسيحي، علاوة على تقليدها الرسولي المكرس للعبادة بوصفها كنيسة المدينة المقدسة وبالتالي خطورة استقلالها على البابوية في المستقبل، ولذا فقد كان الباباوات حذرين تجاه بقاء البطاركة في مناصبهم طويلاً، فأعاقوهم بعدة وسائل منها احتفاظهم بحق المحاكمات القضائية للفرق الدينية المسلحة، ورؤساء الأديرة الكبيرة في فلسطين،

([1]) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.203-204.

وانظر أيضاً: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٨٤. أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٨.

([٢]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٠٩- ٢١٠؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٨٤.

([٣]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص١٧٢، جـ ٣، ص٦٢، ٧٢، ٢٦٥.وكذلك:
La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.204-205.

بحيث صار هؤلاء تحت سلطة البابوية المباشرة، وفي الوقت ذاته دعمت البابوية السلطة الملكية ما دامت قد اعترفت بها، واستفاد الملوك من وضع أنفسهم تحت حماية البابوية، وذلك في مقابل دعم الأخيرة للملوك بالمال والرجال تحت مسمى الدعوة لحملة صليبية جديدة حينما تستدعي أحوال الشرق الصليبي ذلك[١].

وأدى إشراف البابا المباشر على فرق الداوية والاسبتارية والعديد من البيوت الدينية في فلسطين إلى التدخل غير الدائم في شئون مملكة بيت المقدس، بحيث كان لهم إعفاءات واستثناءات أثارت امتعاض الملوك والبطاركة على حد سواء؛ إذ كان لهذه الجماعات ممثلون لدى البابوية في روما لم يعترفوا بسيادة إلا للبابا ولا بقضاء إلا للمحاكم البابوية[٢].

هذا عن علاقة المملكة عموماً بالبابوية أما علاقة المملكة بالغرب الأوربي فقد تمثلت أجلى صورها في مساعدات الغرب وإمداداته للمملكة وفي الظروف التي تحكمت في شكل تلك المساعدات في الفترة التي سبقت عصر عموري. وهنا ينبغي إدراك حقيقة أن أنباء استرداد المسلمين للرها عام ١١٤٤م/٥٣٩هـ أثارت الرعب في الغرب، بحيث كان الأخير في حاجة إلى ما حل بالرها كيما ينهض من جديد لمساعدة الشرق الصليبي بأعداد كبيرة كما الحال في الحملة الأولى، ولا يعني ذلك أن الغرب لم يساعد المملكة في الفترة التي سبقت إرساله للحملة الثانية بل لم تنقطع إمداداته إليها

---

(١) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.205-20.

انظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص٤٩٧- ٤٩٨.

(٢) كان من الشائع أن توجه محكمة مملكة بيت المقدس استغاثات إلى مجلس الشيوخ الروماني حاملة قضايا من كل الأنواع إلى روما، وكانت المحكمة بمثابة الفيصل في تلك القضايا، وسافر إليها قوائم مطولة من البطاركة ورجال الدين والعلمانيين بحثاً عن حقوقهم وعلى رأسهم وليم الصوري. وبصفة عامة كان لدى الكنيسة سيادة نظرية فوق مملكة بيت المقدس، وبينما كانت امتيازاتهم ممتدة وأراضيهم فسيحة، كانت مملكة بيت المقدس أفضل حالاً في علاقاتها مع الكنيسة أكثر من أغلب الدول الأوربية، حيث كان هناك تدخل ضعيف من قبل البابوية، وقدمت الكنيسة مساعدة معقولة في الرجال والمال. راجع في ذلك:

La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.206-216.

ولكنها كانت في شكل جماعات صغيرة لم تمثل فارقاً كبيراً[1]. ويصعب فهم قلة إمدادات الغرب للمملكة والإمارات دون التعرض إلى ظروف الغرب من الداخل[2] في الفترة التي سبقت الإعداد للحملة الثانية[3].

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٢٦٧- ٢٦٨، ٢٩٠–٢٩٦، ٣٢٧، ٣٧٦–٣٨٤. راجع أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٠٠.

كانت مساعدات الغرب إلى الشرق الصليبي قليلة إلى حد ما، فلم يقدم إلى المملكة في السنوات الأخيرة التي سبقت الحملة الصليبية الثانية من الجماعات الصغيرة سوى جماعة تيبري كونت الفلاندرز وصهر الملك فولك، ولم تكن حملة كونت الفلاندرز من القوة ما يؤدي إلى تحسن دائم في أوضاع المملكة والإمارات ومن ثم كان البحث جارياً عن حليف آخر، ثم قدم غير كونت تيبري سواء من الأبناء أمثال باليان شارترز مؤسس بيت أبلين، أم من البارونات على شاكلة هيو لي بوزيه أو منسيس هبيرج اللذين أملا الاستفادة من قرابتهما من البيت الملكي، أما أهم العناصر التي وفدت إلى المملكة فتمثلت في الفرسان اللذين رغبوا في الالتحاق بالطوائف الدينية؛ الداوية والإسبتارية، اللتان "*أخذتا تقومان رويداً رويداً بدور الجيش الثابت للمملكة، وما بذله لهم الملك وأتباعه من ضياع عديدة دلت على ما حظيت به هاتان الطائفتان من بالغ التقدير؛ إذ لم يبق بالشرق، منذ أن تفرقت جيوش الحرب الصليبية الأولى جيشاً للفرنج كان له من القوة ما يكفي للقيام بهجوم كبير على المسلمين*". رنسمان: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص٤٠٠.

([2]) تأجج الصراع الاجتماعي في أوربا نتيجة الوضع السيىء الذي يعيشه الأقنان، في الوقت الذي لم يتطور وضع أوربا السياسي لصالح البابوية، حينما تأزم صراع تعيين الأساقفة في صقلية، وعليه تأزمت علاقاتها بالأخيرة، فضلاً عن المشاكل التي واجهتها البابوية من قبل مدن شمال إيطاليا التي حررت نفسها من المقطعين مكونة قومونات خاصة لإدارة شئونها، بل إن وضع البابا ايوجنيوس الثالث (١١٤٥–١١٥٣م) Eugenius III لم يكن مستقراً في روما من جراء الثورة التي أشعلها أرنولد البريشي Arnould of Brescia معلناً مدينة روما قومونا مستقلاً، فاضطر البابا إلى الهروب من المدينة عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ. انظر في ذلك:

Odo of Deuil, *De profectione*, pp.22–23.

وانظر أيضاً: رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص٩٤–٩٥.

([3]) انشغل الغرب الأوربي بما فيه عن الأوضاع الصليبية في الشرق، إذ كان ريموند برنجار كونت برشلونة يسعى إلى إقامة مملكة على حطام قطالونية وأراجون والجزء الشمالي الشرقي من أسبانيا عام ١١٤٥م/٥٤٠هـ وظل يترقب نتيجة الصراع بين الموحدين والمرابطين على أسبانيا، وفي ألمانيا استغل الأمراء انشغال الأباطرة في صراعهم مع البابوية على السيادة العالمية ليدعموا قواتهم وسلطانهم، وتمخض عن هذا اشتداد وطأة التأثير الإقطاعي، بحيث تحولت حصون الأمراء إلى

فعلى الرغم من المكانة التي حققتها صقلية في عصر روجر الثاني (١١٣٠ – ١١٥٤م) Roger II بفضل موقعها البحري المميز في الطريق إلى الشرق وأراضيها الخصبة واقتصادها المزدهر فإنه لم يُكتب لها المشاركة في الحملة الثانية[١]، ويعود سبب ذلك إلى العداء التقليدي بين صقلية من جهة والبيزنطيين والألمان والبابوية ومدن إيطاليا الشمالية من جهة أخرى[٢]. ومن ناحية أخرى لم تكن علاقات روجر

مراكز تحكم البلاد من خلالها، ولم يعد للأباطرة الألمان نفوذ مباشر سوى على عدد ضئيل من رعاياهم؛ ففي إطار الصراع البابوي الإمبراطوري تعمدت البابوية، عقب وفاة لوثير الثاني (١١٢٥-١١٣٨) اختيار كونراد الثالث السوابي (١١٣٨-١١٥٢)؛ خوفاً من اعتلاء هنري الرابع السكسوني عميد البيت الولفي للعرش بسبب قوته، ومن هنا تأزمت العلاقات بين بيت هوهنشتاوفن الذي يمثله كونراد الثالث وبين الولفيين الذين يمثلهم هنري الرابع، وأقحمت البابوية ذاتها في الصراع الذي دار بينهما، والذي يعود إليه السبب الأكبر في تحزب ألمانيا، وأخذ من البابوية وقتاً وجهداً تعذرت معه عن أداء دورها تجاه الصليبيين في بلاد الشام،كما صارت ألمانيا محطاً لحرب أهليه شغلتها عن المشاركة في محاربة المسلمين بحيث كان موقف كونراد مائعاً حينما سمع نبأ سقوط الرها. راجع في ذلك:

رنسمان: الحروب الصليبية، جـ ٢، ص٤٠١ – ٤٠٣؛ رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص٩٥؛ عبد اللطيف عبد الهادي: السياسة الخارجية، ص٢٠٣ – ٢٠٥.

([1]) Wiruszowski, "The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades", (ed.) Setton, vol. 2, pp.4 – 8.

([٢]) ومن أكثر العوامل التي أدت إلى هذا التوتر في علاقات هؤلاء بصقلية توسع روجر الثاني على حسابهم جميعاً في أبوليا وكلابريا إلى جانب صقلية، معلناً نفسه ملكاً عليها في بالرمو عام ٥٢٤/١١٣٠هـ وامتد في السنوات التالية إلى ساحل شمال أفريقيا، وصار على روجر الثاني أن يحارب كافة القوى التي رأت فيه تهديداً بوصفه ممثلاً لدولة حدودية صاعدة في قلب البحر المتوسط. وقد استفاد روجر من عدم التعاون التام بين أعدائه، حيث النزاع الخطير بين الدعاوى البابوية والألمانية والبيزنطية حول أبوليا وبالمنافسة بين جنوه وبيزا، كما وقف إلى جانبه فشل بيزنطة في دعم ألمانيا والبارونات المتمردين ضده عام ١١٣٧م/٥٣١هـ، وبحلول يوليو ٥٣٣/١١٣٩هـ تمكن روجر من استعادة أملاكه التي فقدها في الحرب وهزم جيشاً بابوياً وأجبر البابا أنوسنت الثاني على الاعتراف به وبأملاكه، في الوقت الذي كان يدبر فيه البيزنطيون والبارونات الأبوليين تطويقاً سياسياً جديداً للملك الصقلي في أعوام ١١٤٠-١١٤٦، وهي الفترة التي سبقت الحملة الثانية مباشرة. انظر في ذلك:

Jaffé, Wattenbach, W., Lowenfeld, Kahenbrunner, P., and Ewald, P., (eds.) *Regesta Ponticficum Romanorum a Candita Ecclesiae and annum*, 1198, 2

الثاني بالكيانات الصليبية في بلاد الشام على ما يرام، ويرجع ذلك إلى المعاملة السيئة التي وجهها الملك بلدوين الأول إلى الملكة أديلاد والدة روجر الثاني بعد استنفاذ بلدوين الأول لثروتها وثروة ابنها في الإنفاق على مملكته، ولم يجد بعدها داعية للاحتفاظ بها زوجة له بعد ثلاث سنوات من زواجه بها، وكانت حجته في تطليقها بأن زواجه منها لم يكن شرعياً[١]، ولكن الحقيقة أن بارونات المملكة لم يرغبوا في أن تكون مملكة بيت المقدس تابعة لكونتية صقلية وأن يكون ملكها مجرد أمير غائب، ولاريب أنه طبقاً لعقد الزواج فإن مملكة بيت المقدس كانت إرثاً لروجر الثاني[٢]، وذلك ما دعاه وشعبه لأن يكرهوا مملكة بيت المقدس[٣]، وسنحت الفرصة أمام روجر بوفاة بوهيمند الثاني أمير أنطاكية - وابن عم أبيه - عام ١١٣٠م/٥٢٥هـ فطالب بإمارة أنطاكية إرثاً له، مما تعارض بشدة مع الادعاءات البيزنطية فيها، وقد حال بينه وبين بيزنطة وصول ريمون بواتييه أميراً على أنطاكية[٤].

وقد كَوَّنَ يوحنا الثاني – لمواجهة أطماع روجر الثاني في أنطاكية - ائتلافاً مع الملك الألماني كونراد الثالث (١١٣٨-١١٥٢م) Konrad III الذي كان منافسه ولف

---

vols., (Libzig, 1885–1886, repr.Graz, 1956), no. 84115; Otto of Fresing, *Gesta Friderici*, trans. by C.C. Mierow, (Columbia, 1966), p.55. Wiruszowski, *The Norman*, pp.8–9.

وعن أهم تحركات روجر الصقلي في شمال أفريقيا انظر:المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص١٨١، ١٨٨،٢٠٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣ ، ص٦٢. وانظر أيضاً: محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص٥٨ – ٥٩؛ رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص٩٥؛ عبد اللطيف عبد الهادي: السياسة الخارجية، ص٣٠٥ –٣٠٦.

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٢٧؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٦٠ – ٢٦٣. وانظر أيضاً:

Odo of Deuil, *De Profectione*, p.93.

(2) Wiruszowski, *The Norman*, p.7.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢ ، ص٣٢٧.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص١٠٢ – ١٠٣. انظر أيضاً:

Odo of Deuil, *De Profectione*, p.11; See also: Wiruszowski, *The Norman*, p.10.

السادس Welf VI أوف بافاريا، يتلقى مساعدات من روجر الثاني، وبهذه الطريقة يستطيع يوحنا الثاني حجز روجر الثاني في الغرب، وبحيث تخلو له الساحة في الشرق اللاتيني، وعليه فقد جرت المفاوضات بين الألمان والبيزنطيين التي اقترح تقويتها بزواج مانويل الابن الرابع للإمبراطور يوحنا الثاني بالأميرة برتا سولزباخ Bertha شقيقة زوجة كونراد الثالث[1].

ويشير الواقع إلى أن روجر كان من أوائل المرشحين للحملة الصليبية الثانية حيث اعتقد لويس السابع أن روجر سيكون حليفاً مفيداً، وحينما تناقش مع الزعماء في اجتماع فيزيلاي Vezelay في ٢١من مارس١١٤٦م/٦ من شوال٥٤٠هـ عن الطرق التي ستسير فيها الحملة كان من بينها بلدان روجر، وقد بعث إليه روجر يتعهد بإمداده للحملة بكافة ما تحتاجه وأنه ربما يرافق هو أو ابنه الحملة[2]، بيد أن الاجتماع رفض مشاركة روجر الثاني[3]، على حين رأت البابوية في قيام كل من لويس السابع

([1]) Otto of Fresing, Gesta Friderici, p.54.

لم تتوقف المفاوضات الجارية بين بيزنطة وألمانيا إلا بوفاة الإمبراطور يوحنا الثاني فجأة في ١٢من أبريل ١١٤٣م/٢٥ من رمضان ٥٣٧هـ، وحينما تجددت المفاوضات مع مانويل الأول ابن الإمبراطور يوحنا وخليفته، تم الزواج بعد جولات دبلوماسية واسعة النطاق، كان الهدف منها الضغط البيزنطي على الألمان للحصول على أفضل النتائج في المفاوضات الجارية، وتمخضت تلك النتائج عن حصول مانويل على مهر زوجته في جنوب إيطاليا، وكان اعتراف الألمان بذلك يعني الصدام المباشر مع روجر الثاني، وحينما قررا مهاجمته حالفه الحظ مرة أخرى بوصول أنباء سقوط الرها في أيدي المسلمين. عن هذه الفترة انظر: عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٢٠-٢٥.

([2]) كان على كونراد الثالث الاعتماد على مانويل في مهاجمته جنوب إيطاليا بيد أنه لن يستطيع ذلك لأنه سيكون مشغولاً بحماية حدوده في أثناء مرور الحملة الثانية ببلاده، فإذا وافق لويس على عرض روجر فإن الأخير سيكون قوياً على الأرض الأوربية بوصفه حليف الملك الفرنسي، مما قد يمنع الملك الفرنسي من محالفة بيزنطة ضده، وإن كان الجميع يعرف أن عين روجر كانت على أنطاكية، وهنا حسمت المشكلة؛ بسبب القرابة التي تربط الملكة الفرنسية إليانور بخالها ريمون بواتييه أمير أنطاكية في ذلك الوقت، ومن ثم لم يعد ثمة موضعاً لمشاركة روجر. انظر في ذلك:

Wiruszowski, *The Norman*, p.12.

وانظر أيضاً: عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٣١–٣٣.

([3]) كان لقيام كل من لويس السابع وكونراد الثالث في هذه الحملة اعتبارات نابعة عن مكاسب مادية،

وكونراد الثالث بالحملة معاً تحدياً صارخاً لإرادتها، بسبب ما كان بين البابوية وكونراد الثالث من توتر، فعولت البابوية على ممارسة لعبة الغزل السياسي التي فرقت بها بين العاهلين[1].

ولم يكن عبور القوات الألمانية للأراضي البيزنطية معبراً عن علاقات التحالف التي ربطت الدولتين[2]، ثم تعقد الوضع الدولي بما قام به روجر الثاني من تحركات خلال الحملة الثانية؛ إذ أعلن روجر الحرب على الدولة البيزنطية مستغلاً انشغال مانويل بمراقبة أراضيه وكونراد الذي كان يقود قواته إلى الشرق، واستولى على

نتجت عن تحول البحر المتوسط إلى ممر مزدهر للتجارة بين الشرق والغرب، ولذا فقد كان فرض نوع من الرقابة وممارسة دور في أنشطته من أولى الدوافع التي قادت الملوك إلى المشاركة في واحدة أو أكثر من تلك الحملات، ولم تخرج مصالح كل من كونراد ولويس عن الحفاظ على مصالح مواطنيهم في بلاد الشام وتوسيع أملاكهم والمشاركة بدور في تجارة البحر المتوسط التي بدأت تدر عليهم نتائج ملموسة سواء في فرنسا أو ألمانيا، كما كان من تطلعات كونراد الثالث مشاركة أسلاف أسرته من الهوهنشتاوفن في التطلع إلى السيادة على العالم، بوصفهم خلفاء الرومان الذين أوجدوا الإمبراطورية قبيل وجود المسيحية ومن ثم تغذية صراعه مع البابا الذي رأى في نفسه نائب المسيح – عليه السلام - على الأرض وسيد العالم بلا منازع. انظر:

رأفت عبد الحميد: "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٩٤-١٩٧.

([1]) Odo of Deuil, *De Profectione*, pp.17–18.

انظر أيضاً: اسحق تاوضروس عبيد: روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين ٨٦٩–١٢٠٤م، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م، ص١٨١.

([2]) كان تحالف بيزنطة وألمانيا قائماً على أساس الحفاظ على مصالحهما السياسية ضد طموح روجر الصقلي مغتصب أراضى الإمبراطوريتين، أما الآن فقد طاب للملك الألماني تحقيق طموحه في أن يكون إمبراطور الرومان الذي يلزمه الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على البيزنطيين وملكهم؛ لأنه لم يخاطب مانويل إلا بملك، بيد أن مانويل- أستاذ الدبلوماسية البيزنطية- كان يُدرك الوضع المعقد الذي تمر به إمبراطوريته، ولذا فقد تحايل على الأطماع الألمانية ومن بعدها الفرنسية بالحيلة بعد الأخرى حتى مروا من عاصمته إلى آسيا الصغرى. راجع:

Wiruszowski, *The Norman*, pp.10-11.

وانظر أيضاً:رأفت عبد الحميد: السمو البابوي، ص١٩٤-١٩٦؛ عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٣٥–٤٧.

كورفو Corfu وكيفالونيا Cephalonia وهدم كورنثة Corinth وأثينا وهاجم الجزر الأيونية في صيف عام ١١٤٧م/٥٤٢هـ، وتحالف مع الفاطميين حتى يأمن مؤخرته[١]. وقد تحتم على مانويل أن يعقد صلحاً مع الأتراك السلاجقة حتى يأمنهم في أثناء انشغاله بصد هجمات روجر وكان ذلك يعني أنه لن يرافق الحملة الثانية[٢]، ولم تكن تلك آخر مشاكل الحملة وإنما واجهتها مشاكل أخرى لم يتوقعها قادتها آنذاك في الشرق، منها تغيب أمراء كل من أنطاكية وبقايا الرها وطرابلس عن حضور المجلس الذي قرر مهاجمة دمشق وليس الرها الهدف الأساس للحملة[٣].

وناهيك عن موقف الأمراء الأناني ما قام به بارونات المملكة أنفسهم الذين أبدو سلبية كبيرة تعذر معها نجاح الحملة في مهاجمتها دمشق[٤] على ما سيشير إليه الباحث بعد قليل، وكان للبابوية دور في النتيجة السلبية التي انتهت إليها هذه الحملة ذلك أنها كانت ترى "أن أي نجاح يحققه الإمبراطور يُمثّل أسوأ كارثة يمكن أن تتوقعها البابوية، حيث كانت الحركة الصليبية لها مجرد ورقة في يدها ضمن أوراق اللعبة السياسية" وقد اتضح قلقها البالغ إزاء مشاركة روجر الثاني في الحملة فعولت على تغذية شعور العداء القديم لدى الملك الألماني نحو روجر الثاني مداعبة إياه باللقب الإمبراطوري الذي لم يكن – أي كونراد الثالث - قد حصل عليه بعد، وحينما فشلت البابوية في إثارة كونراد ضد روجر وقرر كونراد حمل الصليب مع لويس السابع إلى

([1]) Choniates, *Annals*, pp.43–44; Kinnamos, *Deeds*, p.76; Odo of Deuil, *De Profectione*, p. 84; Otto of Freising, *Gesta Friderici*, pp.69 -70.

([2]) Choniates, *Annales*, pp.34–39.

انظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، ص٤٤١–٤٤٤.

([٣]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٠٥–٣٢٠. انظر في ذلك أيضاً: ابن القلانسي: الذيل، ص٣٢٤–٣٣١. وأيضاً:

Roger of Wendover, *Chronica* , p.501;Odo of Deuil, *De Profectione*, p.65; Ernoul, *Chronique*, p.12.

([٤]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣١٦ – ٣١٩؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٥٧ – ٥٨. انظر أيضاً:

Ernoul, *Chronique*, p.12.

الشرق فقد حرصت البابوية على بذر روح المنافسة بين كونراد وبين لويس، وهي الظاهرة التي يمكن رصدها بوضوح على مدار رحلتهما إلى الشرق، وقد كفى البابوية نجاحاً قدرتها على تحريك ملوك أوربا تحت قيادتها إلى الشرق[١].

وقد أدى فشل الحملة إلى إلقاء البابا ايوجنيوس باللوم على القديس برنارد st Bernard من كليرفو Clairvaux، وشبت موجة عارمة من الغضب في الأوساط الأوربية على فشل الحملة مما تسبب في موت الكثير من الناس بلا طائل، ووجهت الاتهامات إلى البابا والقديس برنارد، ودُفِنت عقب وفاة الأخير شتى الخطط للقيام بمشاريع من هذا النوع[٢]، ومما خلّفته الحملة أيضاً توتر العلاقات بين الصليبيين في الشرق وبين الغرب الأوربي، كما دفعت الملك بلدوين الثالث إلى الاعتماد في سياسته الخارجية على الدبلوماسية وبخاصة تجاه بيزنطة التي باعها بقايا الرها[٣].

وكان الاحتكاك التالي للغرب مع الملك بلدوين الثالث فيما يخص استيلاء الأخير على عسقلان، ولم يكن استيلائه عليها في ١٩من أغسطس ١١٥٣م/٢٧من جمادى الأولى ٥٤٨هـ أمراً هيناً؛ وذلك بسبب رفض أساطيل المدن الإيطالية وموانيها مساندته في حصارها، وعليه فإنه اضطر إلى استخدام أساطيل مرسيليا في عمليات الحصار بوصفهم جنوداً مرتزقةً، ولاريب أن تقاعس الأساطيل الإيطالية عن المساعدة كان ناجماً عن انعدام الثقة المتبادلة بين المملكة والغرب بوصفها إحدى نتائج الحملة الثانية غير المباشرة[٤].

---

(١) رأفت عبد الحميد: الفكر السياسي، ص٩٤ – ٩٧.

(2) Pope Eugenius III, *Letter to Louis VII and his Subjects*, pp.57–61.

وانظر أيضاً: رأفت عبد الحميد: السمو البابوي، ص١٩٥-١٩٧.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣١٨ ، ٣٤٣؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٥٧–٥٨.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٥٥- ٣٥٩. وانظر في المصادر الأوربية أيضاً:

Translation of the account of the siege and capture of Ascalon in 1153 from the Auctarium Aquicinense, MGH SS, vol. 6, pp.396,401-2.

واعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية لهذا المصدر المنشورة على الموقع:

(http://www.deremilitari.org/Resources/Sources/ascalon.ht)

ولم يمض الكثير حينما تعرضت الكنيسة الكاثوليكية لفترة عصيبة هي في واقعها حلقة جديدة في مسلسل الصراع البابوي الإمبراطوري على السيادة العالمية، فحينما مات البابا هادريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م)Hadrian IV في سبتمبر ١١٥٩م/رمضان ٥٥٤هـ فقد انتخب اثنان من الباباوات في وقت واحد، حيث انتخب الحزب الإمبراطوري اوكتافيان Octavian الذي حمل لقب فكتور الرابع Victor IV، بينما انتخب الحزب الكنسي رولاند المستشار الذي أصبح معروفاً باسم ألكسندر الثالث، ولم يكن الأخير سوى المبعوث البابوي لهادريان الرابع إلى الإمبراطور فردريك بربروسا في بيزانسون Besancon عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ وأثار الخطاب الذي ألقاه عداء حاداً مع الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا كاد يفقد بسببه حياته[١].

---

(١) لم تكن رسالة البابا هادريان التي حملها ألكسندر الثالث إلى بيزانسون سوى إحدى الخطوات التي اتخذها ضد الإمبراطور بعد أن وجه إليه أكثر من صفعة، كان آخرها صلح البابا مع الملك الصقلي وليم الأول في معاهدة Benvento عام ١١٥٦م/٥٥١هـ، منحه بمقتضاها حق التقليد العلماني، وهو المطلب الذي رفضت البابوية منحه أباطرة ألمانيا، وفي المقابل يتسلم ملوك النورمان في صقلية مملكتهم إقطاعا من البابوية مما يعني وأد اتفاقية كونستانس Constance الموقعة بين الإمبراطورية والبابوية عام ١١٥٣م/٥٤٨هـ، والموجهة أساساً ضد الإمبراطور البيزنطي، وتقضي بعدم التنازل عن أي أرض في إيطاليا للبيزنطيين.

وقد رد فريدريك بربروسا على هادريان برسالة يشير فيها إلى علو قدمه وسموه وإلى كذب ادعاءات البابا واستغلها فرصة لتوحيد الأمراء الألمان خلفه وعليه فقد أدرك البابا أن سهمه جاء طائشاً هذه المرة، فبعث برسالة ثانية إلى الإمبراطور تُعد اعتذاراً رقيقاً عما جاء في رسالته الأولى ومرت الأزمة أو هكذا بدا، حتى اعتلي ألكسندر الثالث Alexander III (١١٥٩-١١٨١م) العرش البابوي، واستاء من إعلان فردريك الإمبراطورية الرومانية المقدسة اسماً لدولته مقابل الكنيسة المقدسة، فأصدر ألكسندر قراراً بالحرمان الكنسي ضد فردريك عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ.راجع في ذلك:

رأفت عبد الحميد: السمو البابوي، ص١٩٦- ١٩٧؛ عادل عبد اللطيف حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٧٧؛ رأفت عبد الحميد: "الملكية الألمانية بين الوراثة =والانتخاب، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط"، القاهرة، ١٩٨٣، ص٢٨٠–٢٨١.

وعن الرسائل التي تبادلت بين هادريان الرابع وفردريك بربروسا انظر:

Monumenta Germaniae Selecta, vol.IV, pp.107–115.

وحينما اعتلي ألكسندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م) العرش البابوي فإنه استاء من إعلان فردريك الإمبراطورية الرومانية المقدسة اسماً لدولته مقابل الكنيسة المقدسة، فأصدر ألكسندر قراراً بالحرمان الكنسي ضد فردريك عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ[١]، ومن هنا نشأ الانقسام البابوي واضطر كل بابا إلى الاستعانة بالعالم للاعتراف به، فاعترف بالبابا ألكسندر كل من فرنسا وأسبانيا وانجلترا ومؤخراً الإمبراطورية البيزنطية وصقلية، بينما اعترف بالبابا فكتور معظم أجزاء إيطاليا حيث تسود السلطة الإمبراطورية وكذا ألمانيا وهنغاريا وبوهيميا والسويد ونورواي[٢]، وسرعان ما وصل مبعوثي ألكسندر الثالث إلى مملكة بيت المقدس يطلبون مبايعتها واعترافها به.

وقد اختلفت الآراء في المملكة؛ إذ كان رأي الملك بلدوين الثالث التأني وعدم استقبال أي من مبعوثي الطرفين لعدم حسم القضية، وساند الملك في رأيه عدداً من أساقفة الكنيسة في المملكة، وإن كان دافعهم مغاير لدافع الملك؛ إذ أنهم تذكروا مؤازرة البابا فكتور الرابع لهم حينما كان كاردينالاً عام ١١٥٥م/٥٥٠هـ ضد الاسبتارية، ولذا فقد حاولوا دعمه بواسطة منع استقبال مبعوثي منافسه ألكسندر الثالث[٣]، وهنا تدخل الاسبتارية إلى جانب رئيس أساقفة صور وأقنعوا المجلس الذي عقد في الناصرية بتأييد مبعوثي ألكسندر الثالث الذي كان انتخابه قانونياً منذ البداية، ونتيجة لذلك

وقد نشرت ترجمة هذه الرسائل إلى اللغة الإنجليزية على الموقع:
(www.Fordham.edu/halsall/source/besancon.html)

رأفت عبد الحميد: السمو البابوي، ص١٩٥-١٩٧.

(١) رأفت عبد الحميد: السمو البابوي، ص١٩٦؛ عادل عبد الحافظ حمزة: العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص٧٧.

(2) Mckilliam, M.A., *A Chronicle of the Popes from St.Peter to Pius X*, (London, 1912), pp.287- 288; King, E. J., The Knights Hospitallers in the Holy Land, (London, Methuen, 1931), p.84; Barlow, F.,"The English, Norman, and French councils called to deal with the Papal schism of 1159", in *EHR*., (1936), pp.264–268.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٤١-٤٤٢.

اعتُرف بألكسندر الثالث وحُرِم الآخر كنسياً مما يفهم منه أن علاقة المملكة بالبابوية كانت جيدة في الفترة التي سبقت عصر الملك عموري مباشرة وبخاصة أن ألكسندر الثالث ظل في منصبه إلى ما بعد وفاة الملك عموري[١].

ومن جهة أخرى مثّلَ عبور الصليبيين إلى بلاد الشام واستيلائهم على أنطاكية - ثم على بيت المقدس وباقي الإمارات في الرها وطرابلس - نقطة لمفترق الطرق، حينما اتضح بجلاء الأهداف والسياسات العدائية تجاه بيزنطة[٢]؛ إذ استولى بوهيمند

([1]) King, *Hospitallers*, pp.84–85.

([٢]) عجزت الإمبراطورية البيزنطية عن فهم المعنى المقصود لمصطلح حملة صليبية؛ إذ أنها كانت ترى الحرب ضرورة يومية لأمور تتعلق بسياستها، وكان توجه الجيش البيزنطي إلى بيت المقدس ضرب من العبث إذا ما كان يعني ترك مؤخرة جيوش الإمبراطورية في آسيا الصغرى دون حماية، وكان إذا رئي ذلك التوصل إلى اتفاق مع المسلمين في حال حدوث ثورة ضد الإمبراطورية في البلقان أو تلقيها لهجوم ما، وفوق كل ذلك فإن الظروف الجغرافية والتقاليد كانت تؤكد أن الحرب مع المسلمين في بلاد الشام وآسيا الصغرى تقع على كاهل الإمبراطورية الشرقية وليست =مسئولية العالم الغربي، ولأجل كل ذلك لم يكن غريباً أن تنشأ الصعاب وتزداد الهوة في الاتساع بين أهداف كل من البيزنطيين والصليبيين. راجع في ذلك: هسي: العام البيزنطي، ترجمة: رأفت عبد الحميد، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٧٩–١٨٠.

وقد مرت القوى الصليبية بالعاصمة البيزنطية بسلام دون صدام مباشر معها بسبب سياسة ألكسيوس الحكيمة، وتحملت إمبراطوريته مسئولية اقتصادية جسيمة، ولكي يأمن نيات زعماء الحملة فإنه انتزع منهم أيمان الولاء التي تضمن له إعادة أملاك الإمبراطورية حال استيلائهم عليها، وكانت التفرقة – هنا - أمراً لابد منه، حيث لم تكن بيت المقدس وطرابلس تابعة للإمبراطورية منذ القرن السابع الميلادي، حقاً اعتُرف بسيادة الإمبراطور البيزنطي على الرعايا الأرثوذكس في العالم الشرقي ولكن تلك السيادة كانت متعلقة بوصف الإمبراطور رأس العالم المسيحي الأرثوذكسي، بعكس الحال في أنطاكية والرها، التي كانت أجزاء من الإمبراطورية حتى وقت قريب، حينما سقطت في يد السلاجقة، ومن هنا كان يمين الولاء والمعاهدة التي أبرمها ألكسيوس مع زعماء الحملة الأولى يهدفان إلى إعادة أملاك الإمبراطورية السابقة إليها. وعلى صعيد آخر كانت توجد دائما حماية Protectorate بيزنطية على المسيحيين الأرثوذكس في الشرق منذ الغزو الإسلامي، وكانت هذه الحماية مقبولة من قبل المسلمين والمسيحيين على حد سواء. لمزيد من التفاصيل عن هذه الإشكالية انظر:

Runciman, S., "The Byzantine Protectorate in the Holly Land", in *Byzantion*, 18, (1948), pp.207–215.

الأول بن روبرت جويسكارد - العدو اللدود للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول كومنينوس (١٠٨١-١١١٨م) Alexios I Komnenos - على أنطاكية وأقام لنفسه إمارة بها، متذرعاً بانسحاب الجنود البيزنطيين من أمام أنطاكية، الأمر الذي حمل في طياته عدم العبيء بالأيمان المقدسة على الأقل من وجهة نظر جنود الحملة الأولى الذين أقسموا تلك الأيمان أمام الإمبراطور ألكسيوس في بيزنطة[١]، حقاً كان الرأي العام يندّدّ بتصرفات بوهيمند مع الإمبراطور ولكن ألم يكن في فشل ألكسيوس في القدوم بنفسه إلى أنطاكية سبباً في ضياعها منه؟ ذلك أنه خسر قضيته بامتناعه عن القدوم بشخصه[٢].

وقد لجأ ألكسيوس الأول - الذي اتسمت سياسته بالواقعية - إلى تعديل مطالبه عقب انتصاره على بوهيمند عام ١١٠٨م/٥٠٢هـ الذي قَبِلَ في النهاية سيادة الإمبراطور على إمارته، وظلت اتفاقية ديفول التي عقدت في ذلك العام ولمدة طويلة تالية أساس الادعاءات البيزنطية في أنطاكية بدلاً من اليمين الذي حنث به الإمبراطور[٣].

راجع أيضاً: مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه حسن حبشي، القاهرة، ص٢٣–٣٢؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٠٧– ١٠٨. وأيضاً:

Anne Commen, *The Alexiad*, English trans.by Elezabeth Dawes, (London, 1928), pp.269–271.

(١) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٥.

(2) Runciman, S., *The Eastern Schism: A Study of the Papacy and the Eastern Churches During the XIIth and XIIIth Centuries*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1955), pp.253-254; La Monte, *To what extent*, pp.253-254.

(٣) وقد جُدّد التحالف بعدئذ في أكثر من مناسبة على يد ريمون بواتييه في أعوام ١١٣٧، و١١٤٢، و١١٤٤، وعلى يد كونستانس في عام ١١٤٩م، ورينو دو شتيون عام ١١٥٣م وأيضاً عام ١١٥٩م، وبوهيمند الثالث عام ١١٦٥م، وظل الاعتراف بالسيادة الإمبراطورية حياً حتى الحملة الرابعة ١٢٠٤م/٦٠٠هـ، وتأكدت هذه السيادة بوجود البطريرك الأرثوذكسي في أنطاكية من عام ١١٦٥ إلى عام ١١٧١م، وتقديم أنطاكية للخدمات الحربية للإمبراطورية والاحتلال البيزنطي لأنطاكية عام ١١٣٨ وعام ١١٥٩م، وفيما بعد إرسال سفارة لتمثيل كل من بيزنطة وأنطاكية في بلاط هنري

وانطلاقاً من دراسة علاقة أنطاكية بالإمبراطورية البيزنطية ومن خلال محاولات الأباطرة البيزنطيين تأكيد سيادتهم على أنطاكية فإنهم احتكوا بالملوك اللاتين في مملكة بيت المقدس بشكل أو بآخر، نظراً للعلاقات التي كانت تربط ملك مملكة بيت المقدس بالإمارات الصليبية - بوصفه وصياً لإحدى تلك الإمارات أو راعياً لأمور أخرى - في الوقت الذي سعى فيه الأباطرة إلى مد سيادتهم إلى المملكة ذاتها، وبخاصة أن الأباطرة البيزنطيين قاموا بدور المدافع عن المسيحيين الأرثوذكس في الشرق، وذلك ما يستدعي الوقوف على وضع بطريركية مملكة بيت المقدس؛ إذ احترم أديمار Adhemar of Lepuy - المندوب البابوي الذي ناب عن البابوية في الحملة الصليبية الأولى - البطريرك يوحنا الأنطاكي John of Antioch الأرثوذكسي وأبقاه يمارس طقوس عبادته في بطريركيته في أنطاكية، وبعث باسم يوحنا وكذا سيمون Simon بطريرك بيت المقدس الأرثوذكسي خطاباً إلى البابا أربان الثاني معترفاً بالبطريرك سيمون رأساً لأساقفة الشرق لاتين وبيزنطيين.

ثم أحدثت وفاة أديمار ارتباكاً لدى قادة الحملة؛ لأن أديمار كان الشخص الوحيد الذي يعرف ما في رأس البابا أربان الثاني، وبعدها بقليل حدث التجاهل التام لحقوق الكهنة البيزنطيين بها حينما أرسل قادة الحملة في طلب البابا الذي لم يكن يفكر في ترك مقره البابوي في إيطاليا إلى بطريركية بيت المقدس، فُعين بطريركاً لاتينياً لبطريركية بيت المقدس مع تجاهل صارخ لحقوق سيمون، الذي تُوفي قبيل استيلاء

الثاني ملك إنجلترا (١١٧٨- ١١٧٩م)، واعتاد الأباطرة على أن يكون أمير أنطاكية التابع البعيد الذي ينزع إلى التمرد، ويجب أن يُذكّر باستمرار بخضوعه وطاعته، وذاك ما حرك كل من يوحنا الثاني ومانويل الأول إليها في أكثر من مناسبة لإجباره بالقوة على العودة إلى الإذعان والطاعة. وبالرغم من ذلك فإن هذه السيادة - على حد تعبير رنسمان - لم تكن إلا سيادة طارئة وخفيفة الوطأة، وإن اشتد قلق أمراء أنطاكية ورجال القانون بها من جانبها، وظلت هذه السيادة عاملاً قوياً في الحد من استقلال أمير أنطاكية. راجع في ذلك: فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٣٤ – ٢٣٥. وانظر أيضاً:

La Monte, *To what extent*, pp.254-256; Hussey, J. M., "Byzantium and the Crusades, 1081-1204", (ed.) Setton, vol.2, pp.126–127.

وأيضاً: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص١٧٠- ١٧٥؛ رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٩٥.

قادة الحملة الأولى على بيت المقدس، ولأنه لم يكن موجوداً هو أو أحد كهنته فقد تقبل الرعايا الأرثوذكس الكهنة اللاتين[1].

وبالقدر الذي حاولت به الإمبراطورية البيزنطية إثبات حقها في المعاهدات التي فرضتها على بوهيمند الأول أمير أنطاكية في معاهدة ديفول عام ٥٠٢/١١٠٨هـ فيما يتعلق بتعيين بطريرك بيزنطي واستعادة البطريركية كمطلب أساس مثّلَ أهم بنود المعاهدات التي عقدها الأباطرة مع أمراء أنطاكية، حتى تحقق لها ذلك في عصر بوهيمند الثالث (١١٦٣-١٢٠١م/٥٥٨-٥٩٧هـ) Bohemond III فإن الأمر كان مختلفاً في مملكة بيت المقدس التي لم يعُتَرف بالبطريركية البيزنطية[2].

وظلت علاقات الإمبراطورية بالمملكة غير محددة؛ فيرى شالندو Chalandon "أن الإمبراطور يوحنا يعتبر أن الأراضي التي تتبع مملكة بيت المقدس كان مشاراً إليها ضمن يمين الولاء الذي أقسمه له الصليبيون عام ١٠٩٧م/٤٩١هـ، وذلك لأنها كانت ضمن تلك الولايات التابعة للإمبراطورية فيما مضى وأنه كان مقدراً استعادتها"، أما لامونت La Monte فيرى أن يوحنا الثاني لم يقم بأية محاولة لفرض سيادته بالقوة على مملكة بيت المقدس، وأنه حينما ذهب إلى شمال بلاد الشام عام ١١٤٢م/٥٣٧هـ فإنه راسل الملك فولك طالباً الإذن بزيارة بيت القدس مصطحباً معه جيشه ومغرياً الملك بالمزايا التي ربما تجنيها المملكة من وجود ملك قوي مثله بإمكانه أن يبعد عن الفرنجة أخطار المسلمين، بيد أن فولك تذرع بفقر بلاده التي تعجز عن إمداد جيش كجيش الإمبراطور يوحنا، ومقترحاً قدومه في قوة قليلة وعندها تراجع

([1]) لم يكن ثمة فارق لدى الرعايا المحليين من المسيحيين؛ لأن البيزنطيين مثل اللاتين غرباء عن البلاد كلية، بيد أنهم شهدوا بعض ألوان التسامح وبخاصة في عصر بلدوين الأول والملكة ميليسيند. انظر في ذلك:

Ahron Ben-Ami, *Institutional Lag*, pp.411-413.

([2]) Runciman, *The Eastern Schism*, pp.87-100.

وعن الكهنة اليونانيين في كنيسة القيامة انظر:

Roziere, (ed.), *Cartulaire de L'église du Saint-Sépulcre du Jérusalem*, (Paris 1849), p.177.

يوحنا عن فكرته[١].

وقد تحكمت الاعتبارات الحذرة للحساسية الغربية أيضاً في سياسة مانويل تجاه مملكة بيت المقدس فيما بين أعوام ١١٥٨-١١٧١م/٥٥٣-٥٦٦هـ، وكان العامل القديم في تأمين الاعتراف بسيطرة الإمبراطور وحمايته لمملكة بيت المقدس والأماكن المقدسة مهماً لدى مانويل[٢]. وحصل مانويل على فرصة كبيرة للتدخل في المملكة والإمارات حينما أصبح موقف تلك الكيانات مهدداً من قبل المسلمين وعلى رأسهم نورالدين أمير حلب والموصل، كما اتسعت الفجوة في علاقة رينو أمير أنطاكية بالملك بلدوين الثالث، هذا في الوقت الذي لم يكن فيه ثمة مساعدة كبيرة متوقعة من الغرب[٣]، ولذا فإنه جرى البحث عن حليف آخر ولم يكن أمام الفرنجة سوى بيزنطة التي اشتهرت بالغنى وعلى العكس عانت مملكة بيت المقدس من صعوبات اقتصادية مزمنة، وعلاوة على ذلك أظهر مانويل بداية من عام ١١٥٠م/٥٤٥هـ استعداده لاتخاذ جانب المملكة والإمارات ولكن كانت ثمة مشكلة في اقتراب المملكة من بيزنطة ألا وهي التخلي لها عن أنطاكية[٤].

وثمة أمر آخر لم يغب عن بال بلدوين الثالث في محاولة اتصاله ببيزنطة في ذلك الوقت تمثل في قيام رينو وتوروس الثاني Thoros II بمهاجمة جزيرة قبرص البيزنطية؛ احتجاجاً من رينو على عدم حصوله على مكافأته من الإمبراطور نظير

---

(١) عن مناقشة لامونت لهذه القضية انظر:

La Monte, *To what extent*, p.257.

وعن طلب يوحنا كومنين الثاني من فولك زيارة بيت المقدس انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٠٣ – ٣٠٤.

هذا وقد رأت هسي Hussey في خطاب يوحنا إلى ملك بيت المقدس أنه كان يأمل في أن يمد سيادته إلى مملكة بيت المقدس مثلما سبق ومدها إلى أنطاكية، بيد أنه توفي قبل تحقيق غرضه. راجع:

Hussey, *Byzantium*, p.133.

(2) Harris, *Byzantium*, pp.107-108; Hussey, *Byzantium*, pp.130–132.

(٣) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤١٥ – ٤٢٠. وأيضاً:

Baldwin, *The Latin*, pp.542–543.

(4) Harris, *Byzantium*, pp.93–94.

محاربته للأمير توروس بناء على طلب مانويل، ولاريب أن الأخير كان غاضباً مما فعله رينو وتوروس خصوصاً أن تصرفهما لم يُرض الصليبيون أنفسهم، وذلك لأن الجزيرة كانت مهمة بالنسبة للصليبيين بوصفها قاعدة متقدمة ونقطة ارتحال للأساطيل الإيطالية[١].

ومن جهة أخرى لم تكن معاداة الإمبراطور مطلوبة في تلك الحقبة تحديداً، لأن كسب مودة مانويل كانت أمر مهم بالنسبة للصليبيين في ظل نمو التهديد الإسلامي[٢]، والواقع أن استجابة الإمبراطور للهجوم جاءت متأخرة بسبب انشغاله بمشاكل الجبهة الغربية لإمبراطوريته وإن ظل مترقباً الفرصة لمعاقبتهما، بما قد يعني تدخله بشكل ما في شئون الإمارات الصليبية وبخاصة أن الجيش البيزنطي كان - وما زال - يُعدُّ أقوى جيش في العالم الأوربي وعند هذه النقطة مثلت محاولة بلدوين الثالث الاتصال بمانويل بادرة ذكية لرأب الصدع الذي أحدثه رينو[٣].

وهكذا وفي بداية عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ وباتفاق البارونات في المملكة أرسل بلدوين الثالث وفداً مفوضاً إلى القسطنطينية لطلب عروس بيزنطية لنفسه، وبعد مفاوضات طويلة توصل الطرفان إلى اتفاق تزوج بمقتضاه الملك بلدوين الثالث الأميرة تيودورا ابنة أخ الإمبراطور، وقُدّر مهر العروس بحوالي مائة ألف بيزنط وعشرة آلاف أخرى لنفقات الزواج، وقُدّرت تجهيزاتها الخاصة بحوالي أربعة عشر

([1]) Kinnamos, *Deeds*, pp.136-137; Grégoir Le Prêtre, *Chronicle*, p.169; Smbat, *La Chronique*, pp.44-46.

انظر أيضاً:وليم الصوري: الحروب الصليبية ،جـ٣، ص٤٠١ – ٤٠٣؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٢. راجع أيضاً: سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٢م، ص٢١–٢٣.

([2]) Lilie, *Byzantium and the Crusader States 1096-1204, Studies in the Relations of the Byzantine Empire with the Crusader States in Syria and Palestine*, trans. by J. C. Morris and J. E. Ridings, (Oxford, 1993), pp.168-169.

([٣]) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٦٤.

ألفاً أخرى، ومن ناحية الملك بلدوين فقد كفل مدينة عكا معاشاً لعروسه[١]. كانت هذه الاتفاقية مهمة للصليبيين، إذ أبدى الإمبراطور بموجبها استعداده لدعم المملكة، ويبدو أن بلدوين وافق من جانبه على تقدم بيزنطة تجاه أنطاكية ولكن دون إقامة أية سيادة بها، وإن كان يصعب القول إن الملك بلدوين قدم ما يشابه ذلك داخل المملكة[٢].

بيد أن مانويل لم ينس ما قام به رينو وتوروس ولذا فإنه تقدم بالجيش البيزنطي صوب قيليقية وأنطاكية عام ١١٥٨م/٥٥٣هـ بعد أن صفى خلافاته مع وليم الأول في صقلية١١٥٨م/٥٥٣هـ، مما منحه السلام الذي يحتاجه في الغرب، ومن ناحية أخرى فإنه عقد معاهدة سلام مع قلج أرسلان السلجوقي حاكم قونية[٣]، في الوقت الذي كان يتقدم فيه بلدوين الثالث إلى أنطاكية وهنا يفترض ليلي Lilie "أن بلدوين كان يعرف بسر تقدم الإمبراطور ما لم يكن تقدمه صوب الشمال محض صدفة[٤]".

كان الهدف الظاهري الذي دفع مانويل إلى التقدم نحو قيليقية تأديب توروس الثاني الذي أحرج مركز الإمبراطورية العسكري في الفترة الأخيرة بهزيمته لجيوشها واستيلائه على أغلب المواقع البيزنطية في قيليقية، وبسبب تحالفه - أيضاً - مع رينو في مهاجمة جزيرة قبرص البيزنطية، ثم لتأديب رينو وإخضاعه، ولكن ثمة أمر آخر ربما كان له أهمية أكبر في الإتيان بالإمبراطور مانويل في ذلك الوقت بالذات وبخاصة أن الغارة التي شنها كل من رينو وتوروس على قبرص كانت قبل ذلك بعامين.

---

(١) وليم الصوري: الحروب الصليبية ،جـ٣، ص٤٢٦ – ٤٢٨. وانظر أيضاً:
Ernoul, *Chronique*, p.14.

(2) Lilie, *Byzantium*, pp.175–176; Harris, *Byzantium*, pp.94,108; Baldwin, *The Latin*, p.542.

(٣) عن علاقة المملكة الصليبية بالإمبراطورية البيزنطية في هذه الفترة انظر:
Kinnamos, *Deeds*, pp.109–144.
راجع أيضاً:عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٥١– ٨٨؛ ليلى عبد الجواد: حملات مانويل، ص٨٢–٨٣.

(4) Lilie, *Byzantium*, p.167.

ففي عام ١١٥٥م/٥٥٠هـ توفي مسعود سلطان سلاجقة قونية واندلعت الحرب الأهلية في سلطنته، ووقع ولده وخليفته قلج أرسلان في صدام شديد مع نورالدين صاحب حلب في وادي الفرات، وأمام هذا التحدي عقد قلج أرسلان معاهدة صلح مع بلدوين الثالث ورينو أمير أنطاكية وتوروس الثاني الأرمني عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ، وحينما وصلت أنباء هذه المعاهدة إلى البلاط البيزنطي أرسل مانويل سفيره ألكسيوس جيفارد محملاً بالهدايا إلى بلاط قلج أرسلان، طالباً منه وعداً باحترام حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى وذلك عام ١١٥٨م/٥٥٣هـ، وبعدها قرر مانويل قيادة حملة ضخمة بنفسه لتصفية حساباته في كل من قيليقية وبلاد الشام[١].

ولاريب أن مانويل كان يُقدّر خطورة التحالف بين الصليبيين وبين سلاجقة قونية وتوروس؛ لأن ذلك يؤدي إلى قطع الطريق على نفوذ الإمبراطورية وممتلكاتها في آسيا الصغرى ويُعرّض عملية توازن القوى في الشرق للخطر، والأكثر من ذلك خطورتها على نفوذ الإمبراطورية في أنطاكية وبقية الإمارات الصليبية، ونظراً لتصاعد قوى نورالدين وتهديده المباشر لشمال بلاد الشام واستيلائه على معظم بقايا إمارة الرها - التي سبق واشترتها الإمبراطورية البيزنطية بتدخل الملك بلدوين الثالث - فإن بيزنطة أعادت ترتيب أوراقها في الغرب في محاولة استعادة مكانتها في الشرق، ولم تكن سفارتها إلى سلاجقة قونية سوى كسب للوقت ريثما يستعد الإمبراطور للتوجه نحو الشرق.

وكما هو متوقع لم يجد مانويل معاناة في استعادة أملاكه في قيليقية وآسيا الصغرى لفرار توروس إلى الجبال تاركاً بلاده مفتوحة أمام الإمبراطور، وحينذاك علم رينو أن حساب ما قام به في قبرص قادم[٢] في الوقت الذي خسر فيه حلفاء

([1]) Grégoir Le Prêtre, Chronque, in RHC.Doc.Arm., t.1., p.169; Smbat, *La Chronique*, pp.44-46.

انظر أيضاً:اسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢١٢-٢١٣.

([2]) Kinnamos, *Deeds*, pp.137-138,144.

راجع أيضاً:وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٨–٤٣٠. وأيضاً:

La Monte, *To what extent*, pp.258- 259.

إمارته؛ إذ كان نورالدين يهدد حدوده الشرقية ولم تكن علاقته حسنة بالملك بلدوين الثالث عقب ما قام به رينو تجاه البطريرك إيمري[1] ومهاجمته لجزيرة قبرص، ولم تكن ثمة مساعدة متوقعة من صديقه الأرمني توروس الذي كان يواجه صعوبات أفظع[2]، وبعد محاولات عديدة لمراسلة الإمبراطور استدراراً لعطفه قَبِل الإمبراطور العفو عن رينو عقب إذلاله على مرأى ومسمع في المعسكر الإمبراطوري أمام أنطاكية[3]، ثم أقسم رينو أيمان الولاء للإمبراطور ووعد بتسليم قلعة أنطاكية عندما يطلب الإمبراطور ذلك، وأن يقدم عدداً من الجنود إلى الإمبراطور، ثم المطلب الأساس الذي طالما سعى أباطرة بيزنطة إلى تحقيقه، وهو استبدال البطريرك اللاتيني في أنطاكية بآخر يوناني. على أية حال كانت تلك الشروط معتدلة ولم يضغط مانويل على مطلب والده يوحنا في ضرورة تسليم أنطاكية إليه وأقنع مانويل ذاته بالسيادة على أنطاكية[4].

وحينما وصل بلدوين الثالث إلى المعسكر الإمبراطوري فإنه وجد رينو وقد استعاد ألقابه وإقطاعه، وبذا انتهت مسألة التركية الأنطاكية، حيث يعتقد كيناموس أن

([1]) قام رينو بتعذيب البطريرك إيمري حينما رفض الأخير إعطائه من ماله ما طلبه الأول، وحينما اشتد به العذاب أقر بما عنده من مال وعلى موضعه، ثم هجر إيمري أنطاكية إلى بيت المقدس وعاد إليها مع الملك بلدوين الثالث لمقابلة الإمبراطور مانويل، وقد فسر وليم الصوري مهاجمة توروس لجزيرة قبرص باحتياجه الشديد إلى المال الذي دفعه أيضاً إلى تعذيب البطريرك إيمري. لمزيد من التفاصيل راجع:

Kinnamos, *Deeds*, p.138.

راجع أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٧٩–٣٨١.

([2]) Kinnamos, *Deeds*, pp.137–138. See also: Lilie, *Byzantium*, p.177.

([3]) La Monte, *To what extent*, pp.255–256.

([4]) Kinnamos, *Deeds*, pp.138–139; Smbat, *La Chronique*, pp.44–46; Choniates, *Annales*, pp.61-62.

وانظر أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٩–٤٣٠؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٣-١٧٤.

بلدوين الثالث كان يطمع في أنطاكية لنفسه[1]، وإذا صح هذا من الناحية النظرية فإنه يتعارض مع ما خطط له مانويل تجاه أنطاكية وربما تجاه مملكة بيت المقدس، مثلما يتعارض ضد خططه أيضاً اتحاد الشرق الفرنجي تحت حاكم واحد؛ لأنه كان أمراً مغرياً للإمبراطور مانويل وكذا بلدوين أن يخلعا رينو الذي لم يتسبب إلا في المتاعب على أن تنقل الإمرة لملك بيت المقدس الذي سوف يأخذ آنذاك يمين الولاء للإمبراطور على الأقل فيما يخص أنطاكية، ولكن ذلك ربما يعني - باستثناء طرابلس - أن يتحد الشرق الفرنجي تحت يد واحدة وأن موقفاً كهذا ربما يخالف كل المساعي البيزنطية التي تهدف إلى تقسيم الخصوم الخطرين ثم تلعب بهم بعدئذ الواحد تلو الآخر[2].

ولن يقتصر الأمر على ذلك؛ لأن نبلاء أنطاكية لن يوافقوا على ذلك أبداً؛ لأنه يُعدّ خرقاً للقانون ولحقوق النبالة، ويضاف إلى ذلك أن رينو سوف يترك الإمارة عما قريب؛ لأنه يحكم بوصفه زوج الأميرة الحاكمة وبسبب قصور ابنها بوهيمند الثالث الذي سيؤدي بلوغه سن الرشد إلى إحلاله محل رينو، ولن يكون من حق بلدوين الثالث اعتلاء عرش أنطاكية طالما أن أسلاف بوهيمند على قيد الحياة ومن هؤلاء نورمان صقلية، وسيكون من الصعب أن يحجموا عن اتخاذ أية تصرفات[3]، وعليه فإن ما ناقشه بلدوين مع مانويل في لقائهما أمام أنطاكية سيظل غير واضحاً، بالرغم من استغراق ذلك اللقاء عشرة أيام، جل ما حدث فيها مصالحة بلدوين لمانويل على توروس الثاني وإنقاصه للفرقة العسكرية التي اتفق على أن تقدمها أنطاكية لبيزنطة[4].

ولكن هل أقسم الملك بلدوين الثالث يمين الولاء للإمبراطور مانويل في المعسكر الإمبراطوري أمام أنطاكية؟ الواقع أن المصادر المعاصرة لم تذكر حدوث شيء من ذلك صراحة، وإنما اتُخِذَ من بعض قواعد الضيافة البيزنطية التي استقبل بها

([1]) Kinnamos, *Deeds*, p.139.

([2]) Lilie, *Byzantium*, pp.178–179; La Monte, *To what extent*, p.259.

([3]) Lilie, *Byzantium*, pp.178–179.

([4]) Kinnamos, *Deeds*, pp.140–141.

وأيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٢٣-٤٣٣.

مانويل الملك بلدوين، مثل جلوس الأخير على عرش أقل من عرش مانويل ومسيرته خلف مانويل في موكب دخول الأخير إلى أنطاكية ذريعة لعدها إشارات ضمنية على اعتراف الملك بلدوين ومن ثم مملكة بيت المقدس بسيادة الإمبراطور مانويل وذلك وفقاً لمفهوم النظام الإقطاعي البيزنطي، وقد ناقش لامونت آراء كل من شالندو وكاهن في هذا الأمر ووافقه مجداليو Magdalino في رأيه في كونها إشكالية غامضة، وأن جل ما حدث ربما لم يخرج عن كونه تحالفاً أكدته الأحداث التالية التي شارك فيها كل من مانويل وبلدوين الثالث عامي ١١٥٩-١١٦٠م/٥٥٤- ٥٥٥هـ، كما عدّها مجداليو سابقة للعلاقات التي حاول مانويل تكوينها مع كل القوى المحلية المجاورة في العقد التالي[١].

ويمكن البحث عن باقي تفسير ما حدث بمراجعة ظروف الغرب الأوربي كيما تتضح الصورة أكثر؛ ذلك أن ما قام به مانويل في هذه الحملة كان تحويلاً واقعياً في الادعاءات البيزنطية، بحيث أصبحت المسألة لدى مانويل مجرد الحصول على اعتراف بالسيادة وليس إقامة حكومة مباشرة. ويُعزى هذا التغير في الادعاءات البيزنطية إلى بعض ما حققته بيزنطة في الغرب؛ إذ كانت علاقات بيزنطة بالمملكة الصقلية في حالة سلام، فإذا ما غامر مانويل بالذهاب إلى الشرق اللاتيني فربما يؤدي وصوله المفاجئ إلى بلاد الشام إلى تعريض هذا السلام للخطر، فضلاً عن التهديد الألماني الذي بدأ يظهر جلياً في إيطاليا، وربما تقوم الحكومة الألمانية في إيطاليا بمهاجمة الولايات البيزنطية.

وكان تحالف مانويل مع النورمان من أهم مميزات عام ١١٦٠م/٥٥٥هـ؛ إذكان البابا ألكسندر الثالث في جانب كل من بيزنطة وصقلية، وعليه فإن إلحاق بيزنطة القسري لأنطاكية بأملاك الإمبراطورية البيزنطية ربما يؤدي إلى ارتماء مملكة بيت المقدس في أحضان أعدائها، ويُعرّض السياسة البيزنطية الغربية للخطر، وفي مثل

---

(١) انظر في ذلك:

La Monte, *To what extent*, pp.257–260; Magdalino, *The Empire of Manuel I Komnenos, 1143-1180,* (Cambridge, Cambridge University Press, 1993), p.74.

تلك الظروف كان على مانويل أن يقنع بإعلان ادعاءاته في أنطاكية وتحالفه الرسمي مع مملكة بيت المقدس، ولذا فإن وصوله إلى تلك الصورة الهادئة من الاعتراف بادعاءاته رسمياً في أنطاكية والتحالف مع مملكة بيت المقدس، كل ذلك يُكسبه دعم البابوية ومحالفة صقلية والتفرغ لمحاربة عدو واحد هو الإمبراطور الألماني فردريك بربروسا[1].

هنا حققت الدبلوماسية البيزنطية الهدف الذي قدم مانويل لأجله إلى الشرق؛ حلفاً مع مملكة بيت المقدس وإذعان أنطاكية والأرمن لسيادته، وحصول مانويل على وعد من نورالدين بمحاربة سلاجقة قونية، وعليه فإنه لم يكن ثمة ما يدفع مانويل إلى إفساد هذه المكاسب، وذلك عن طريق تعريض جيشه للخطر إذا ما هاجم حلب، أو بمعنى آخر لماذا انسحب مانويل دون أن يحارب نورالدين أو يهاجم حلب كما كان مخططاً بالتنسيق مع الملك بلدوين الثالث وقادة الصليبيين في بلاد الشام؟ لقد تعلل مانويل ببعض المشاكل التي تعانيها إمبراطوريته في الغرب[2]، بيد أن ذلك مقبول ظاهرياً فقط، أما التفسير الواقعي فإنه يكمن في رؤية مانويل لعملية التوازن ذاتها، وهي أن لا يقضي على العدو الذي طالما دفع باللاتين في المملكة والإمارات إلى الارتماء في أحضان إمبراطوريته التماساً لمساعدتها.

ومن ناحية أخرى لن يستفيد مانويل شيئاً من محاربته لنورالدين؛ لأنه لن يضع يده على أملاك نورالدين إذا ما استولى عليها، فالأمر المتوقع أن يحصل عليها اللاتين ومن ثم العقدة البيزنطية في اتحاد الفرنجة بالشرق، وهو إخلال بالتوازن الذي ينشده مانويل، أما إذا طمع مانويل فيما سيستولى عليه من نورالدين فإنه سيجعل من نفسه أضحوكة أكثر سخرية في نظر الغرب، ولن يكون في مسلكه هذا أي ذكاء؛ لأنه يؤكد

---

(1) Lilie, *Byzantium*, pp.180–181.

راجع أيضاً: هسي: العالم البيزنطي، ص١٩٤.

(2) Kinnamos, *Deeds*, pp.144–145; Choniates, *Annales*, p.62; Smbat, *La Chronique*, p.48.

وانظر أيضاً:وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٤؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٣.

بذلك كافة الاتهامات التي كيلت لإمبراطوريته نحو القضية الصليبية من قبل.

أما إذا انسحب مانويل دون محاربة نورالدين فباستطاعته تغطية ذلك بتحرير عدة أسرى لهم شأن في الغرب من أسر نورالدين، وعدة آلاف أخرى من الأسرى العاديين وهو أمر يجعله يبدو في نظر الغرب بمظهر الإمبراطور التقي الذي يدافع عن المسيحية ورجالها[١]، وعلى نحو آخر فإن مانويل سيستفيد من هذا المدلول في صراعه مع الإمبراطور الألماني الذي كان يدعي أحقية انفراده باللقب الإمبراطوري في الغرب[٢]، وقد نجح مانويل مؤخراً في هذا الصدد في اكتساب صداقة البابوية؛ إذ عرض عليه البابا ألكسندر الثالث الاعتراف به وحده إمبراطوراً على الغرب، لأجل ذلك ولغيره لم يكن مانويل يسعى إلى تدمير اللاتين ولا إلى القضاء على نورالدين، وبخاصة أن الأخير وعد مانويل بمساعدته في حروبه ضد الأتراك السلاجقة.

وتأكد في السنوات التالية بعض ما حققه مانويل من نجاح عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، حيث علم نورالدين أن الفرنجة في حماية مانويل ولذا فإنه لم يقدم على مهاجمة أنطاكية عقب أحداث معركة حارم عام ١١٦٤م/٥٥٩هـ[٣]، وفي الوقت ذاته أجبر قلج أرسلان الثاني تحت ضغوط القوى البيزنطية والصليبية والأرمنية إلى طلب عقد الصلح من الإمبراطورية البيزنطية، وهو الصلح الذي حدث بعدئذ في العاصمة البيزنطية، حيث قام مانويل باستقبال قلج أرسلان بصفته فصل إقطاعي لبيزنطة[٤]،

([1]) Smbat, *La Chronique*, pp.47–48.

وأيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٤؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق٢، ص٣٠٨. انظر أيضاً:

Harris, *Byzantium*, p.107.

([٢]) انظر في ذلك:

Kinnamos, *Deeds*, pp.172–173.

وأيضاً:عبد العزيز رمضان: العلاقات البيزنطية اللاتينية، ص٥١–٨٨.

([٣]) انظر: حسين عطية: إمارة أنطاكية، ص١٧٠-١٧٤.

([4]) Kinnamos, *Deeds*, pp.151–159.

وانظر أيضاً: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٩٠.ولكن ابن الأثير يقول أن الروم انهزموا وقتل منهم عدة آلاف.

وهكذا حققت الدبلوماسية البيزنطية بهذه الخطوة بعض أهدافها في إقامة التوازن في الشرق بين المسلمين والصليبيين، بحيث تهاجم الدول الإسلامية بعضها بعضاً مثلما تهاجم الفرنجة، ولكن لا ينبغي أن يخفى أن النجاح الذي حققه مانويل كان له أسوا الأثر على نفسية الصليبيين، ولأجل ذلك فترت حماستهم تجاه البيزنطيين حيث توترت العلاقات بين الطرفين بحلول عام ١١٦٠-١١٦١م/٥٥٥- ٥٥٦هـ[١].

وقد أدى إلى هذا التوتر عاملان يتمثل أولهما في استيلاء بلدوين الثالث على أسوار أنطاكية دون استشارة مانويل حينما وقع رينو في أسر المسلمين عام١١٦٠م/٥٥٥هـ الأمر الذي أغضب الإمبراطور[٢]، أما الأمر الثاني فممثل في رغبة مانويل في الزواج من إحدى قريبات الملك بلدوين الثالث محدداً له إحدى اثنتين، إما ميليسيند أخت ريموند الثالث كونت طرابلس أو مارية الأنطاكية أخت بوهيمند الثالث أمير أنطاكية. ويعود تفكير مانويل في إحدى أميرات الإمارات الصليبية إلى عدة عوامل، وذلك لأن زواج مانويل من أميرة ألمانية لم يكن بالفكرة الصائبة بسبب توتر علاقات الدولتين، كما لم يُبد الإمبراطور مانويل اهتماماً بالتحالف مع إنجلترا أو فرنسا، ولذا فإنه توجه إلى الإمارات الصليبية التي كان يعلم جيداً بضعفها، وأنه بوسعه تحقيق نفوذ كبير فيها دون مجهود يذكر وسيكون مشكوراً على أية حال من قبل البابوية[٣].

ولم يكن ترشيح بلدوين الثالث للأميرة ميليسيند عشوائياً بل ربما كان بلدوين الثالث متعمداً عدم ترشيح الأميرة مارية الأنطاكية له؛ إذ كان لهذا التصرف مغزاه السياسي وهو إبعاد بيزنطة عن أنطاكية خشية من ازدياد نفوذها بها، ثم طالت

([1]) La Monte, *To what extent*, pp.260-260; Harris, *Byzantium*, p.107; Baldwin, *The Latin*, pp.545-546.

وعن ترشيح مارية ووصف المؤرخون البيزنطيون لها انظر:

Choniates, Annales, pp.65-66.

([٢]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٩ – ٤٤٠. انظر أيضاً:

La Monte, *To what extent*, p.261.

([3]) Harris, *Byzantium*, pp.107–108.

المفاوضات التي أعقبت ترشيح ميليسيند أعقبها تخلى الإمبراطور عن فكرة الزواج منها، على الرغم من إشارة الوثائق الرسمية إلى ميليسيند بوصفها إمبراطورة المستقبل[١]، وكان أخيها الكونت ريموند الثالث قد أعد لها أسطولاً ليزفها إلى بيزنطة، أنفق عليه وعلى أخته مبالغ طائلة لإعطائها جهازاً يليق بمكانتها المقبلة عليها، كل ذلك تبدد في الهواء بوصول رفض الإمبراطور، فحوّل ريموند الثالث أسطوله إلى القراصنة معطياً إياهم أوامر صريحة بمهاجمة السواحل البيزنطية انتقاماً من الإمبراطور.

وقد علل كيناموس رفض الإمبراطور لمليسيند لما وصل أسماعه عن مولدها غير الشرعي[٢]، على حين أن ما حدث كان نتيجة لوقوع رينو في أسر نورالدين وقت مفاوضات رسل الإمبراطور بخصوص ميليسيند، فتحرك الحزب المعادي لبيزنطة في أنطاكية بقيادة توروس الثاني لتنحية الأميرة كونستانس عن الحكم وإعلان ابنها القاصر بوهيمند الثالث أميراً على أنطاكية، وعليه راسلت كونستانس مانويل بوصفه سيدها الإقطاعي بمقتضي معاهدة عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ[٣]؛ إذ كانت الأميرة كونستانس تخشى من ازدياد نفوذ الملك بلدوين الثالث - الذي كان كارهاً لها ولزوجها- في أنطاكية.

كان بلدوين الثالث آنذاك في أنطاكية يتحمل مسئولية الدفاع عنها وتقوية دفاعاتها عقب أسر رينو[٤]، حيث فوجئ الملك بالمبعوثين البيزنطيين الذين كانوا في طرابلس، وجدهما في أنطاكية يناقشان أمر زواج الإمبراطور من مارية الأنطاكية، وهنا يكمن السر، حيث إن الإمبراطور حينما أرسل بسفارته إلى طرابلس فإنه لم يكن قد أُسر رينو بعد، وحينما وقع الأخير في الأسر اضطر الإمبراطور إلى إطالة

---

(1) Rohricht, R., *Regesta Regni Hierosolimitani*, (Innsbruck 1893), no.366. وتشير هذه الوثيقة إلى الأميرة ميليسيند على أنها إمبراطورة المستقبل.

(2) Kinnamos, *Deeds*,p.158.

(٣) ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٥-١٧٦.

(٤) انظر عن ذلك:وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٣٩- ٤٤٠. انظر أيضاً:
Baldwin, *The Latin*, p.546

المفاوضات الجارية في طرابلس بحيث لا تفضي إلى شيء، ثم تحول مانويل إلى مارية أميرة أنطاكية التي سيكون في صالحه الزواج منها، في ظل أسر رينو، وهي في أفضل الأحوال خير من أميرة طرابلس التي لا يزال أخيها ريموند على قيد الحياة[١]، وقد وطد هذا الزواج من علاقات بلاطي أنطاكية وبيزنطة، وأخذ النفوذ البيزنطي يزداد وضوحاً في الإمارة، وهذا ما أزعج الملك الجديد لمملكة بيت المقدس - عموري الأول - هو وبوهيمند الثالث، وبعثا بشأنه رسالة إلى الملك الفرنسي لويس السابع، للشكوى من ازدياد نفوذ بيزنطة في بلاد الشام[٢].

وعلى الجبهة الإسلامية حرص نورالدين أمير حلب والموصل على الاستفادة من ابتعاده عن الاضطرابات التي تحدث في الشرق في أملاك أخيه سيف الدين غازي التي سبق وأرقت مضجع أبيهما زنكي من قبل الأراتقة والسلاجقة والعباسيين[٣]، وفي الوقت ذاته تكاتف كل من نورالدين وسيف الدين على التعاون طالما لن يطمع أحدهما في أملاك الآخر وطالما ظل بينهما نوع من التفاهم، وبذا استطاع نورالدين أن يركز جهوده كلها ضد الفرنجة في المملكة وضد معين الدين أنر[٤] في دمشق[٥].

([1]) Lilie, *Byzantium*, p.185.

([٢]) إسحاق عبيد: روما وبيزنطة، ص٢٢٥–٢٢٦. وعن الخطاب الذي بعث به عموري إلى لويس السابع ملك فرنسا انظر:

Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI pp.38-39; Amalrici, Regis Hierosolymorum, ad Ludovicum, in RHGF, t. XVI, p.40.

([3]) Baldwin, *The Latin*, p531; Gibb, H.,, "The Career of *Nur ad-Din*", (ed.) Setton, I, pp.513.

([٤]) هو الأمير معين الدين أنر مدبر دول أولاد أستاذه طغتكين بدمشق، كان عاقلاً خيراً حسن السيرة والديانة موصوفاً بالرأي والشجاعة محباً للعلماء والصلحاء كثير الصدقة والبر، توفي عام ١١٤٩م/٥٤٤هـ. راجع: الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٧، ص١٣٠٥.

([٥]) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٨٨. وكذلك:

Baldwin, *The Latin*, p.531.

وبشكل ما ساعدت المملكة الصليبية على ازدياد قوة نورالدين التي أعطته الفرصة للتدخل في دمشق المتمسكة بسياستها التقليدية في الصلح مع مملكة بيت المقدس حرصاً منها على استقلالها، وسنحت الفرصة لتدخل نورالدين في شئونها بما ارتكبه الصليبيون من حماقة باستجابتهم لمطلب ألتونتاش الذي خرج على معين الدين أنر - حاكم دمشق - في مدينتي بصرى وصلخد[1] التابعتين لدمشق، ثم بعث إلى المملكة الصليبية يطلب نجدتها[2]. كانت الوجبة دسمة في نظر بلدوين الثالث، كما أغراه بارونات به بالمزايا التي سوف تكتسبها المملكة من ضمها لبصرى وصلخد ولكن دون الأخذ في الاعتبار نتيجة الفشل في الاستيلاء عليهما، وتمثلت مزايا المشروع في أن أغلب سكان المنطقة من المسيحيين المحليين وأنه من الممكن استغلال المنطقة بمساعدتهم، كما يتيح الاستيلاء عليهما الفرصة لمضايقة دمشق، ولكن ما لم يدركه الملك هو أن فشل مساعدته لألتونتاش تعني فصم تحالفه مع دمشق[3].

وبالرغم من تحذير أنر لبارونات المملكة ووعده بتحمل نفقات حملتهم إذا ما تخلو عن المشروع فإنهم أصروا على المواصلة، والوقع أن أنر رفض النزول على طلب الصليبيين في إعادة ألتونتاش إلى منصبه، وفي الوقت ذاته كانت لديه فكرة مسبقة عن هدف الحملة ومساحة من الوقت استعد خلالها لصد الهجوم، والأهم من ذلك أنه اتصل بنورالدين والتمس مساعدته وعندما وصل جيش المملكة إلى المدينتين اكتشف الملك وبارونات ما وقعوا فيه من خطأ منذ البداية، حيث سلمت زوجة ألتونتاش مدينة بصرى إلى أنر في الوقت الذي أصبح فيه جيش المملكة في حالة مزرية بعد رحلة طويلة ومنهكة ففضّل الملك بلدوين الارتداد[4].

([1]) تعد هذه المدن من أعمال دمشق بحيث تبعت إدارتها في فترة حكم البوربين لدمشق، وبصرى مدينة قديمة وتسيطر على مقاطعة أو كورة الطراخونية.راجع: جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٥٨-٥٩.

([2]) انظر في ذلك: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٤٣-٢٤٧؛ ابن القلانسي: الذيل، ص٢٨٩-٢٩٠.

([3]) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٩٨-٣٩٠.

([4]) ابن القلانسي: الذيل، ص٢٨٩-٢٩٠؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٥٨.

ولم يكن غريباً على أنر أن يبعث إلى بلدوين الثالث وهو في رحلة عودته إلى المملكة يعرض إمداده بالمؤن وذلك لأن نورالدين - الذي خشي أنر من امتدد نفوذه إلى دمشق - صار على مقربة من دمشق، وعليه فلم يشأ أنر أن يُعرّض الجيش الصليبي للتدمير على يدي نورالدين مثلما لم يرغب في مواجهة نورالدين وجهاً لوجه، بيد أن بلدوين الثالث رفض عرض أنر ولكن ذلك لم يغير من حقيقة فشل الحملة التي وصفها رنسمان بأنها كانت "باهظة التكاليف ولم يكن لها هدف معين، ودلت على حماقة الفرنج في أمورهم السياسية وخططهم العسكرية[١]"، وهكذا كان نورالدين المستفيد الوحيد من الحملة وبخاصة أنه ظل محتفظاً بتحالفه مع أنر[٢].

ثم جاءت الحملة الصليبية الثانية لتكشف عن حماقة أخرى وقع فيها ملك بيت المقدس للمرة الثانية، وإن لم يكن له عذر هذه المرة، "إذ كان أمر الشرق اللاتيني .....يعتمد على العلاقات بين مملكة بيت المقدس وبين الدول الإسلامية وبخاصة دمشق التي ظلت تقاوم التقدم الحلبي نحو الجنوب أكثر من أي شيء آخر... إذ يبدو بوضوح أنه كان ينبغي لمعظم العوامل الدبلوماسية والاعتبارات السياسية أن تقود اللاتين إلى تجنب أية تصرفات من شأنها تعريض توازن القوى في الشرق للخطر، وبالرغم من كل شي فإن ذلك ما أحدثته الحملة الصليبية الثانية على يد زعمائها[٣]".

فمن ناحية كان الملك بلدوين الثالث يخشى أن يقوم أمير أنطاكية بمنع الملك لويس السابع من القدوم إلى المملكة وكان يخشى حدوث ذلك خلال مرور الملك بإمارة طرابلس[٤]، والواقع أنه كان لدى معظم أمراء الشرق الصليبي دواعي محددة للاستفادة من الحملة الثانية؛ إذ كان جوسلين الثاني يرغب في الإفادة منها وبخاصة أن الحملة قامت أساساً بسبب سقوط إمارته، بينما حاول ريموند بواتيه توجيه الحملة إلى حلب للقضاء على قوة نورالدين واستعادة ما فقدته أنطاكية شرقي العاصي، أما ريموند دي تولوز كونت طرابلس فإنه رغب في الحصول على مساعدة الحملة لاستعادة

---

(١) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٩٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، ١٩٤٥م، جـ٢، ص٢٩١.

(3) Baldwin, *The Latin*, p.532.

(٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٢٩٢.

حصن بعرين Barin الذي فقده منذ قليل، أما مملكة بيت المقدس فقد كانت الطامة الكبرى حينما انفرج الاجتماع - الذي عقد لتقرير وجهة الحملة - عن توجيهها إلى دمشق.

وتكمن أسباب مهاجمة الحملة لمدينة دمشق بالذات على الرغم من خروج الحملة أساساً لاستعادة الرها في حقيقة أن الاستيلاء عليها سيقطع الصلة بين الجبهة الجنوبية ممثلة في مصر وإفريقية وبين الجبهة الشمالية في شمال الشام والشرق نهائياً، بيد أن دمشق لم تكن تستحق ذلك؛ لأن حكامها من الأسرة البورية كانوا الوحيدين الذين انفردوا بصداقة الفرنج حتى تلك اللحظة، وكانوا يرون - كأبعد الفرنج بصراً - أن نورالدين أكبر عدو لهم، ولذا فإن صداقة الفرنج لحاكم دمشق تضمن للأخير محايدة نورالدين على أقل تقدير، فإذا انقلبت الآية وهاجم الفرنج دمشق فسيكون من المتوقع أن ترتمي دمشق في أحضان نورالدين[1]، وقد برهنت أحداث صلخد وبصرى على ذلك، ولكن يبدو أن بارونات المملكة لم ينظروا سوى تحت أقدامهم وتطلعوا مع ملكهم إلى الانتقام لما لاقوه من ذلة وهوان في حملتهم على بصرى وصلخد، أما حلب فإنها لم تكن مهمة لدى قادة الحملة الثانية مثل دمشق التي جرى تبجيلها في الكتاب المقدس، ويبدو أن الملك بلدوين تمكن من إقناع قادة الحملة بمهاجمة دمشق[2].

لم يحفل أنر بأنباء هذه الحملة في البداية ربما لسماعه بما تكبدته من خسائر في آسيا الصغرى، علاوة على عدم توقعه أن تكون دمشق وجهتها الأخيرة، وعندما أيقن ذلك أخذ استعداداته واستغاث بنور الدين للمرة الثانية[3]. هاجم الفرنجة دمشق بضراوة وكادوا يستولون عليها، بيد أنهم تحركوا فجأة إلى الناحية الشرقية من دمشق ربما

---

(1) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٤٧– ٤٥٣؛ ماير: تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، دار الأمين، القاهرة، ٢٠٠١، جـ١، ص١٤٩–١٥٠.

(2) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٠٥- ٣١٣.

(3) ابن القلانسي: الذيل، ص٢٩٧؛ ابن الأثير: الباهر، ص٨٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٢٩١.

رغبة من المحاصرين في تلاشي كمائن المسلمين خلف الأحراج المحيطة بالمدينة[١]، وإن وقف خلف هذا المسلك العديد من الاستفسارات؛ إذ كان الموضع الأول أفضل لجنود الحملة في توفيره للماء، ولم يكن قطاع السور في الموضع السابق قوياً مثلما صاروا يواجهون في الموضع الجديد، وتوافر للدماشقة حرية الانطلاق حول البساتين ومهاجمة جيوش الحملة مجتمعة، وذاك ما جعل الألسن تتهامس عن حدوث خيانة أوقعت بالجميع في شباك المسلمين[٢]. وتقرر المصادر الإسلامية أن أنر استطاع أن يبثّ الفرقة والتخاذل في المعسكر الصليبي الذي جمع أشتاتاً متباينة من الأمم الغربية والشرقية وبذل لبارونات المملكة وعداً بالتخلي لهم عن بانياس في مقابل إفشال الحملة[٣]، لأنه بالرغم من قلق أنر من مهاجمة الصليبيين لدمشق فإنه كان قلقاً أكثر من تقدم نورالدين، وبناء على ذلك استغل تقدمه في إرهاب بارونات المملكة والملك ذاته.

أما المصادر الغربية فقد ركزت على خطورة الانتقال إلى ناحية الشرق، بحيث تحرج موقف الجيش الصليبي بشدة، وأعزت ذلك إلى حصول بعض بارونات المملكة على رشوة من أنر اكتشفوا فيما بعد أنها مزيفة، وأنه عرض عليهم التخلي عن محالفة نورالدين إن هم تراجعوا عن الحصار[٤]، ولاريب أن أنر أثار التردد بين البارونات بهذه الطريقة بالرغم من أنه كان يسعى إلى اكتساب الوقت؛ إذ كان قدوم نورالدين إلى دمشق يعني تدمير الجيش الصليبي ثم حدوث الخطوة التالية في انتقال دمشق إلى حوزته وهو ما كان يخشاه أنر، ولم يمض الكثير على اقتناع البارونات بحماقة الاستمرار في مهاجمة دمشق، بينما جأر لويس السابع وكونراد الثالث -قادة الحملة الثانية- لما اكتشفاه من خيانة ومن افتقار صليبيي المملكة إلى الحماس ثم أمرا الجيوش

---

(١) عن هذه الأحداث انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٠٥ – ٣١٧؛ ابن القلانسي: الذيل، ص٢٩٧؛ ابن الأثير: الباهر، ص٨٨-٩٠.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣١٦–٣١٧.

(٣) ابن الأثير: الباهر، ص٨٨–٩٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م، جـ١، ص٢٩٨- ٣٠٠.

(4) Ernoul, *Chronique*, p.12; Odo of Deuil, *De profectione*, p.65.
وانظر أيضاً: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣١٦- ٣١٧.

بالارتداد عن دمشق[1].

ثم تهيأت فرصة أخرى لتدخل كل من أنر ونورالدين معاً إلى جانب ريموند كونت تولوز ضد برتراند كونت تولوز Bertrand of Toulouse الابن غير الشرعي لألفونسوا جوردان Alfonso Jordan حيث استطاع برتراند الاستيلاء على حصن العريمة من أملاك ريموند، فطلب الأخير مساعدة أنر ونورالدين حينما تقاعس الصليبيون عن نجدته، وانتهت الحملة باستعادة العريمة وتدميرها وأسر نورالدين لبرتراند وأخته، والواضح أن أنر لم يشارك في ذلك إلا لإرضاء الملكة ميليسيند وذلك بمساعدته لصهرها ريموند أوف تولوز، بينما استطاع نورالدين توطيد نفوذه في وسط بلاد الشام وترسيخ تحالفه مع أنر[2].

وبالرغم من وقوع المملكة في الحرب الأهلية التي نشبت بين الملك بلدوين الثالث وأمه الملكة ميليسيند (١١٤٩-١١٥٢م)[3] فإن نورالدين لم يقم بعمل عدائي ضد المملكة لتركيزه جل جهده حول هدف واحد تمثل في الاستيلاء على دمشق، وبالرغم من الغارات العشوائية التي شنها أنر على المملكة عقب فشل الحملة الثانية فإن خوفه من أطماع نورالدين في دمشق جعله يرغب في الدخول في مفاوضات جديدة مع المملكة، إذ عقدت معه المملكة هدنة لمدة عامين بدءاً من مايو ١١٤٩م/ محرم ٥٤٤ هـ[4]، وحينما توفي أنر في أغسطس عام ١١٤٩م/٥٤٤هـ فقد سنحت الفرصة أمام نورالدين لفرض نفوذه في دمشق - وبخاصة عقب تولي حكومتها رجل ضعيف هو مجيرالدين أبق[5] ولكنه انشغل عن ذلك بأخبار وفاة أخيه سيف الدين غازي[1].

---

(1) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٥٧.

(2) ابن الأثير: الباهر، ص٩٠. انظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٢٣.

(3) عن الصراع الذي عانت منه المملكة من جراء الحرب الأهلية في تلك الفترة انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٣١- ٣٣٧.

(4) ابن القلانسي: الذيل، ص٣٠٣-٣٠٤.

(5) أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين التركي الملك مجير الدين أبو سعيد صاحب دمشق وابن صاحبها جمال الدين بن تاج الملوك الدمشقي، ولد ببعلبك وأقيم في إمارة دمشق بعد أبيه، وتولى معين الدين أنر مملوك جد أبيه تدبير أمر إمارته، وحينما ملك نورالدين دمشق أعطاه حمص فأقام بها قليلاً وانتقل إلى نابلس بأمر نور الدين ثم توجه إلى بغداد وتوفي عام ١١٦٨م/٥٦٤هـ . انظر:

وحرص مجيرالدين على التمسك بالسياسة التقليدية لحكام دمشق في محالفة المملكة إزاء ما كان يدبر له نورالدين بخصوص دمشق، بيد أن مجيرالدين اضطر إلى نقش اسم نورالدين على السكة وذكر اسمه في الخطبة في دمشق بعد اسم الخليفة والسلطان، بمعنى أنه اعترف بسيادة ما لنور الدين عام١١٥٠م /٥٤٥هـ، وإن لم يمنعه ذلك من الاستعانة بجيش المملكة حينما تقدم نور الدين نحوه في مايو ١١٥١م/صفر٥٤٦هـ وظل مجيرالدين متمسكاً بتحالفه مع المملكة خلال عامي١١٥١/٥٤٦هـ ، ١١٥٢م/٥٤٧هـ[٢].

ولم يكن بلدوين الثالث بعيداً عن أوضاع الخلافة الفاطمية وإنما ظل يترقبها بعين الحذر[٣]، وذلك في ظل بقاء عسقلان في يد الخلافة الفاطمية التي حرصت على تعزيز حاميتها بشكل منتظم، ولكن لم يحدث بعد عام ١١٢٣م/٥١٧هـ أن اتخذها الفاطميون قاعدة لشن هجوم رئيس على المملكة الصليبية، بيد أن حاميتها اعتادت مهاجمة السكان المحليين في المملكة ويافا بحيث جلبت حالة من عدم الطمأنينة لسكان السهل الخصب وطرق الحجاج إلى المملكة مما دعا ملوك بيت المقدس إلى تأسيس

الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٥، ص٧٨٤.

(١) أدت وفاة سيف الدين غازي إلى انشغال نورالدين بإعادة تنظيم أملاك الأسرة مرة ثانية، حيث حل قطب الدين محل أخيه الراحل وقد حرص نورالدين على اعتراف قطب الدين به.

(٢) ابن القلانسي: الذيل، ص٣٠٧-٣١٠، ٣١٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٤٦–٣٤٨.

(٣) كانت الخلافة الفاطمية توشك أن تتداعى؛ إذ لم يل وزارتها رجل قوي منذ مصرع وزيرها الأفضل، بينما ظل الآمر يمارس شئون الخلافة حتى لقي مصرعه أيضاً في أكتوبر ١١٢٩م/ذي القعدة٥٢٣هـ، وقد حرص الخليفة الحافظ على التخلص من قيود وزرائه حينما قام بتعيين ابنه الحسن في الوزارة، وعندما اكتشف أبوه عدم ولائه أمر بإعدامه عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ.ولم تنته الفوضى عند هذا الحد؛ إذ تلاه في الوزارة بهرام الأرميني، الذي ملأ المناصب الإدارية ببني جلدته من الأرمن مثيراً رد فعل عنيف، تلاه إراقة دمائهم أياماً في شوارع القاهرة، وظل الخليفة الحافظ حريصاً على منصبه حتى عام ١١٤٩م/٥٤٤هـ، وحينما تلاه ابنه الظافر فقد استهلت خلافته بحرب أهلية بين اثنين من أكبر قواده، خرج منها ابن السلار بالوزارة، ليلاقي مصرعه عقب ثلاث سنوات.انظر في ذلك: ابن القلانسي: الذيل، ص٢٤٢، ٢٩٦، ٣١١، ٣٢٩ – ٣٣٠. انظر أيضاً: رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٤٤؛ ماير: الحملات الصليبية، جـ١، ص١٦٨.

عدة مواقع حصينة قرب عسقلان لكبح هذا النشاط[١].

وينم توجه بلدوين الثالث إلى عسقلان في هذا التوقيت عن فهمه لما بات عليه الوضع السياسي والعسكري في بلاد الشام؛ إذ كان بلدوين يرى نورالدين يكبر شيئاً فشيئاً ويركز قوته على دمشق في تلك الآونة، ولعله رأى أن استيلائه على عسقلان ربما يمهد للصليبيين طرقاً أخرى جديدة للتوسع بعيداً عن منافسة نورالدين في الشمال[٢]. كان الوزير الفاطمي ابن السلار يراقب ذلك بحذر، وقد حاول الوصول إلى تفاهم مع نورالدين ربما أدى إلى عرقلة تحركات بلدوين الثالث تجاه عسقلان، بحيث يهاجم نورالدين الجليل - وهو من أهم أقاليم المملكة - في الوقت الذي يهاجم فيه الأسطول المصري موانى المملكة بيد أن المحاولة فشلت[٣].

بدأت عمليات حصار عسقلان بطيئة في ٢٥من يناير ١١٥٣م/٢٨من شوال٥٤٧هـ، وانتهت في ١٩ من أغسطس ١١٥٣م/٢٧من جمادى الأولى ٥٤٨هـ بتسليم حامية عسقلان، ويقرر رنسمان أن نورالدين لم يحاول التدخل في عمليات الحصار نظراً لما اشتهر به من سياسة بعيدة النظر[٤]. والواقع أنه لم يقم سوى بمحاولة واحدة تجاه مدينة بانياس بمشاركة مجيرالدين لكنها لم تسفر عن شيء بسبب اختلافهما، وفي الوقت الذي لم يُبد فيه نورالدين اهتماماً لتحول نظر الصليبيين إلى

---

(١) أقام ملوك المملكة ما بين عامي ٥٣٠/١١٣٦هـ و١١٤٩م/٥٤٤هـ تباعاً: قلعة جبلين وبيت جبرين وبينة، ثم أتم بلدوين الثالث الحلقة حول المدينة ببناء قلعة فوق أطلال غزة القديمة وذلك عام ١١٥٠م/٥٤٥هـ. راجع:

Smail, R.C. "Crusaders' Castles of the Twelfth Century.", in *CHJ*., 10, (1951), pp. 139–140.

(٢) عبد اللطيف عبد الهادي: السياسة الخارجية، ص٢٤١ – ٢٤٨. راجع أيضاً:

Baldwin, *The Latin*, p.538.

(٣) ربما يعزى ذلك الفشل إلى انشغال نورالدين بتحقيق طموحه في دمشق، أما الأسطول المصري فقد هاجم يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس، وقتل وأسر الكثيرين. راجع: ابن القلانسي: الذيل، ص٣١٥.

(٤) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٥٤٥–٥٤٩.

وعن العمليات العسكرية التي حدثت حول عسقلان انظر: وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٣٤٩– ٣٥٩، ٣٦١–٣٧١؛ ابن القلانسي: الذيل، ص٣١٥.

الجبهة الجنوبية فإن مجيرالدين كان سريع التأثر، بحيث أكد صداقته للملك بلدوين ووافق على دفع مبلغ مالي سنوي؛ وبينما كان ذلك يحدث كان رعايا دمشق غاضبون من وقاحة الفرنج في دمشق، وازداد رد فعلهم حينما قطع عنهم نورالدين الإمدادات التي تأتيهم من الشمال وإيقاع الأخير بين مجيرالدين ورجاله وبثه ما يشنّع بمجيرالدين وبمسئوليته فيما يحدث بسبب محالفته للصليبيين، وسرعان ما تواترت الأحداث التي أدت إلى إذعان دمشق إلى نورالدين في هدوء عام ١١٥٤م/٥٤٩هـ[١].

وقد فاق استيلاء نورالدين على دمشق في رجحانه ميزان استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان؛ إذ أصبحت أملاكه تمتد من الرها إلى شرقي الأردن إزاء كل الطرف الشرقي لإمارات الفرنج، ولم يبق بوسط بلاد الشام سوى عدة إمارات صغيرة على غرار شيزر التي حافظت على استقلالها[٢]. وبالرغم من أن ممتلكات الفرنج فاقت في ثروتها ومساحتها أملاك نورالدين فإنه كان للأخيرة ميزة توحيدها تحت زعامة سيد واحد لا يلاقي من أتباعه ما يلاقيه منهم بلدوين الثالث من مناوئه[٣].

وفي ظل حذر نورالدين وكياسته فإنه لم يتابع انتصاراته، وفضل الإبقاء على تحالف دمشق مع مملكة بيت المقدس، حيث جدّدت الهدنة لمدة سنتين أخريين في أكتوبر ١١٥٦م/شعبان ٥٥١هـ ودفع للمملكة ثمانية آلاف دينار استمراراً لما كان يؤديه مجيرالدين إليها[٤]، والواقع أن نورالدين ابتغى من هذا التحالف تأمين جبهة دمشق كي يتفرغ إلى منطقة أخرى من الصراع، إذ كان ينافس سلاجقة آسيا الصغرى في انتزاع نصيبه منهم في بقايا إمارة الرها[٥]، وحينما نقض بلدوين الثالث هدنته مع نورالدين وذلك باستيلائه على قطعان ماشية الرعاة المسلمين قرب بانياس في فبراير

---

(١) ابن القلانسي: الذيل، ص٣٢٤–٣٣١؛ ابن الأثير: الباهر، ص١٠٦ – ١٠٨؛ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٠٤ – ٣٠٥؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢١٠.

(٢) عن هذه الكيانات الصغيرة التي حافظت على استقلالها انظر: حجازي عبد المنعم: إمارة شيزر في عصر بني منقذ، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنوفية، ٢٠٠٢م.

(٣) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٥١.

(٤) ابن القلانسي: الذيل، ص٣٣٦؛ أبو شامة، الروضتين، جـ١، ق٢، ص٢٥٨.

(٥) رنسمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٤٥١.

١١٥٧م/محرم٥٥٢ هـ فإنه عاد إلى دمشق حيث تبادل مع بلدوين الثالث المناوشات التي أثبتت غلبة كفة نورالدين[١].

وأعقب ذلك موجة عارمة من الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام وهدمت العديد من المواقع الإسلامية والصليبية جعلت كل يطرف يلتزم بإصلاح مواقعه ومراجعة أعماله[٢]، وحينما قرر الملك بلدوين الثالث استغلال فرصة الزلازل بمحاولة مهاجمة إمارة شيزر عام ١١٥٧م/٥٥٢هـ فإنه كان يسعى إلى إقامة دولة أو إمارة مسيحية كبرى في بلاد الشام تأخذ على عاتقها إعاقة الانتصار الذي أحرزه نورالدين بتوحيد شمال الشام ودمشق ونواحيها تحت سلطته[٣]، والواضح أن الفرصة كانت مواتية بسبب مرض نورالدين والاضطرابات التي شهدتها أملاكه تبعاً لذلك علاوة على الزلازل ووصول بعض الأمراء من الغرب حديثاً إلى المملكة، وحينما أصر رينو دو شتيون أمير أنطاكية على ضرورة أن يُقْسم من سيملك المدينة له بالولاء فقد تشاجر القادة وفشل المشروع[٤] وكان ذلك في صالح المسلمين[٥].

ولم تكن المحاولات التي قام بها الملك عموري الأول لغزو مصر هي الأولى من نوعها؛ إذ سبق وفكر جودفري أوف بويون في الاستيلاء على مصر قبيل استيلائه على بيت المقدس طالما كانت مفاتيح بيت المقدس في مصر آنذاك[٦]، علاوة على

---

(١) ابن القلانسي: الذيل، ص٣٣٧ – ٣٤٣؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٣، ص٤٠٣ – ٤١٥.

(2) Gibb, *Nur ad-Din*, p.521.

(3) Baldwin, *The Latin*, p.542.

(٤) حجازي عبد المنعم: إمارة شيزر، ص١٥٠- ١٥٤. وأيضاً:

Gibb, *Nur ad-Din*, pp.521-522.

(٥) حينما قدم مانويل إلى أنطاكية عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، وقرر بعد شد وجذب مصالحة نورالدين أدرك الصليبيون جميعاً قمة الخطورة التي يواجهونها من قبل المسلمين؛ لأنهم رأوا أن فشلهم في الاستفادة من قوة مانويل في محاربة المسلمين وخصوصاً نورالدين كان بمثابة آخر محاولة لإجهاض مشروعات نورالدين التوسعية، وحينما فشلت عملية الإجهاض أيقن الفرنجة أن أمامهم مستقبل ملبد بالغيوم والصعاب.

(٦) محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص٥٢-٥٣.

الواقع الذي يشير إلى استيلاء الصليبيين على أملاك الفاطميين سواء في المدن الساحلية أم في المدن الأخرى الداخلية وعلى رأسها بيت المقدس وطرابلس ثم عسقلان مؤخراً، ولم يكن ليحدث ذلك دون استجابة الخلافة الفاطمية له، فلم تتوقف العمليات الحربية التي شنتها الخلافة على المملكة انطلاقاً من عسقلان حتى استيلاء الصليبيين عليها[1]، مما دعا بلدوين الأول إلى التحرك لإيقاف هذا النشاط من خلال حملتيه على مصر؛ الأولى استكشافية عام ١١١٦م/٥٠٩هـ والثانية توغل فيها - بعد مهاجمته لمدن رفح والعريش والفرما عام ١١١٨م/٥١١هـ - إلى مشارف الدلتا حتى وصل إلى ماء النيل واضطر الجيش للعودة عقب وفاة بلدوين الأول[2].

ولكن ما يستلفت النظر هنا توافر السياسة التي كانت تهدد بالقضاء على الكيان الصليبي منذ وقت مبكر، حينما حاولت مصر في وزارة الأفضل ابن بدر الجمالي الاتصال بالأمير دقاق ثم طغتكين في دمشق في أعوام ١١٠٢م/٤٩٦هـ،١١٠٤م/ ٤٩٨هـ، ١١١٧م/٥١١هـ، ١١٢٣م/٥١٧ هـ لجمع كلمة المسلمين في مصر وبلاد الشام ضدّ المملكة الصليبية، وقد أدرك الأفضل طبيعة وجود الكيان الصليبي إذا ما وضع بين المسلمين في بلاد الشام ومصر، ولأجل ذلك بذل محاولات عدة لتنسيق الجهود بين مصر ودمشق، وكان يرى أن تبادل المعلومات حجر الزاوية للوقوف على حركة الصليبيين[3].

وقد اتخذ الصليبيون الخطوات التي تكفل لهم قطع الصلة بين مسلمي الشام

([1]) انظر في ذلك: ابن القلانسي: الذيل، ص١٣٥-١٤١، ١٦٢-١٦٤، ١٦٢، ٣١٥، ٣٣٢، ٣٥١؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٢-٣٦، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ١٠٧، ٢٠٢، ٢٢٤، ٢٣٠ ،٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٦؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص١٥٧-١٦٠، ١٨٨-٢٣٢،١٩٤-٢٣٣ ،٢٣٧-٢٣٨، ٢٣٩-٢٤٣، ٢٨٥-٢٨٧؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ١، ص٣٠٤-٣٠٥، ٤١٨-٤١٩، جـ٢، ص١٤٣-١٤٨، ١٦٠-١٦٦، ٢٢٤-٢٢٦، ٢٤٣-٢٦٢،٢٤٧-٢٨٧،٢٦٨-٢٩٨، ٣١٨-٣٣٠، ٢٤٣-٣٨٤،٣٧٦،٢٤٤؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٤٢، ٥٤، ٥٧.

([2]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٣٢٨-٣٣٠؛ فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ٢٦٤-٣٧٠؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٥٣-٥٤؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٤٣-٤٤.

([3]) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٥٤.

أنفسهم وبينهم وبين المسلمين في مصر، وكان أبرزها قطع الاتصال الجغرافي الذي سيُؤمّن حدود المملكة في الجبهة الجنوبية في وادي عربة ويُحكِم السيطرة على المنطقة التي تمتد من جنوب البحر الميت إلى ميناء أيلة على خليج العقبة، وكان هذا هدف حملة بلدوين الأول على مصر ثم أكد هذا الإجراء ببناء قلعة الشوبك[١] لعزل مصر عن بقية العالم الإسلامي، ثم اتُخِذت الخطوات الأخرى التي تُتِم عملية العزل بما بدا من قيام كل من الملك فولك والملك بلدوين الثالث ببناء قلاع إبلين وبلانش كارد وبيت جبرين وتعمير غزة[٢]، واختتمت الحلقة بالاستيلاء على عسقلان بوصفها خط الدفاع الأمامي عن مصر[٣]، وبالرغم من ذلك فإن بلدوين الثالث فشل في الابقاء على استقلال دمشق بصفتها دولة حاجزة وحليفة حينما دفع بها في أحضان نورالدين، ويُعدّ بلدوين الثالث المسئول عن ما حدث لدمشق بسبب الانطباع الذي أعطاه عن نفسه للمسلمين - على طول حدود الإمارات المسلمة - بمحاولة الاستيلاء على تلك الإمارات دون امتلاك القدرة على تحقيق ذلك، وقد بدا ذلك جلياً في دمشق وسيُرى فيما بعد في حملات المملكة على مصر[٤].

وقد حدثت محاولات جادة لتنسيق الجهود بين مصر وأمراء بلاد الشام وإن عرقل نجاحها ظروف مصر الصعبة التي عانت من عدة أزمات حادة اقتصادية كانت

---

(١) فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٢٥٧.

(٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية،جـ٣، ص٢٠٩-٢١٠.

وقد قام الملك فولك دانجو ببناء قلعة إبلين على تل قريب من مدينتي اللد والرملة وقد أصبحت تحت إمرة رجل نبيل يدعى باليان الذي يلقب أحفاده بلقب الإبلينيين نسبة إلى ذلك المكان، وقد عد هذا المكان – أي قرية جت - بالإضافة إلى عدة أماكن أخرى مثل بئر السبع أو جبلين، وبرج المراقبة الأبيض الذي يطلق عليه العامة اسم تل الصافي، الذي يبعد ثمانية أميال عن عسقلان، كل تلك الأماكن شيدها الفرنجة قبل تمكنهم من الاستيلاء على عسقلان وذلك لكبح العسقلانيين ولضبط غاراتهم وإيقافها داخل حدود المملكة. انظر في ذلك: جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٤٦.

(٣) فولشر أوف شارتر: الوجود الصليبي، ص٣٢٧-٣٢٨؛ وليم الصوري: الحروب الصليبية،جـ٣، ص١٣٠، ٣٥٣؛ جاك دي فيتري: تاريخ بيت المقدس، ص٥٦.

(4) Aharon Ben-Ami, *Institutional lag*, pp.415–416.

أم سياسة[1]، وكان لاتحاد الجبهة الإسلامية في بلاد الشام أثره في جذب أنظار مسلمي

([1]) ومن ذلك تذبذب فيضان النيل مثلما حدث مؤخراً في عصر الخليفة الفائز في العقد السادس من هذا القرن،كما اشتدت المجاعة في وزارة الصالح طلائع بن رزيك عام ١١٥٩م/٥٥٤هـ، ثم عادت مرة أخرى في خلافة العاضد، نتيجة ارتفاع منسوب النيل عام ١١٦٣م/٥٥٩هـ، بمعنى أن التذبذب بين الزيادة والنقصان كان يؤدي إلى حدوث خلل في الاقتصاد، ترتب عليه أوبئة ومجاعات لم يتحملها الاقتصاد المصري، فضلاً عن صراع عناصر الجند المختلفة ومن تلك العناصر السودانيين والأرمن والمغاربة والمشارقة والروم والبدو والعرب والصقالبة وغيرهم، ولا يخفى ميل بعض هذه العناصر إلى الشغب والعنف، واختلافاتها المعقدة في الأهواء والتقاليد والجنس واللون والغايات والرغبات، وازداد صراع هذه الطوائف بعد ضعف الخلفاء واستفحال صراع الوزراء منذ أيام المستنصر بالله، وقد حاول بدر الجمالي إعادة الرخاء الاقتصادي للدولة في حدود عام ١٠٧٤م/٤٦٦هـ، وإن ترتب على وزارته تحول الوزير إلى السلطة الفعلية بينما تراجعت سلطة الخليفة إلى الظل.

ومما عانته الدولة الفاطمية أيضاً الصراعات داخل بيت الخلافة وقد بدأ ذلك بالفتنة بين نزار والمستعلي ثم توالت الصراعات بعد ذلك بين أبناء الخليفة الحافظ، وبين الريحانية والجيوشية وبين رضوان بن الولخشي وبهرام الأرمني، وبين ابن السلار وعباس وابنه ناصر، وبين هذين وبني رزيك، ثم بينهم وبين شاور وضرغام، فضلاً عن حركات المعارضة التي قامت في وجه الدولة ومن أشهرها حركة أبو ركوة في شمال أفريقيا التي استهدفت إعادة المذهب السني، كما أيدت الدولة الفاطمية حركة أبو الحارث البساسيري، التي هدفت القضاء على الخلافة العباسية في بغداد ذاتها، أما العمليات الحربية التي قادتها الدولة للخارج فمنها الإمدادات الحربية التي كانت تُوجّه بانتظام إلى عسقلان، وإعداد الأسطول لمهاجمة المدن الصليبية الأخرى. عن أحوال الدولة الفاطمية في الفترة قيد البحث انظر:

ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص٧٥؛ عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٤٨، ١١٣؛ أسامة بن منقذ: الاعتبار، ١٨- ٢٧؛ أبو شامة: الروضتين، جـ١، ق١، ٣١١-٣١٢؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم وآخرون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م، جـ٢، ص٤١-٤٥؛ اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٠٤-٢٠٩، ٢٢٠-٢٢١، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٤٤، ٢٤٦-٢٤٧، ٢٥٤؛ ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، دار المعرفة الجامعية، بيروت، ١٩٧٠م، ابن أيبك: كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب)، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٣٩١هـ- ١٩٧٢م، جـ٧، ص١٦؛ ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٧٠. وانظر أيضاً: أمينة الشوربجي: رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨ – ٥٦٧ هـ/ ٩٦٩- ١١٧١م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م ص٤٨٣-٥١٤.

مصر إليها وبخاصة في أثناء قيام الفرنج بمهاجمة المدن الفاطمية الساحلية في بلاد الشام، ومن ناحية أخرى حاولت القوى السياسية في مصر جذب نظيرتها في بلاد الشام إلى التدخل في مصر، وقد حدث ذلك على أيام وزارة كل من رضوان بن الولخشي[1] وابن السلار في محاولة منهما للعودة إلى كرسي الوزارة بعد طردهما منه، وعلى الرغم من الصعوبات التي كانت تواجهها مصر فإنها حاولت عرقلة الصليبيين في المملكة وذلك بمهاجمة المدن والموانى الساحلية، وفي الوقت ذاته حاولت مصر جذب نورالدين لمشاركتها فيما تقوم به وقد تُوِجت أشكال التقارب بين مصر وبلاد الشام في وزارة طلائع بن رزيك[2]، إذ تطلع طلائع بن رزيك إلى دعوة نورالدين للعمل ضد الصليبيين سواء بتنسيق الجهود أو بالإعانات المالية والبشرية ولكن دون أن تخرج الفكرة إلى حيز التنفيذ[3]. ولعل أبرز ما في تاريخ مصر في تلك الفترة الصراع بين شاور وضرغام على كرسي الوزارة، وكان لصراعهما الدور الأكبر في تدخل الملك عموري ونورالدين في أحوال مصر الداخلية والخارجية على

([1]) يُعدّ أبو الفتح رضوان بن الولخشي من الوزراء الذين فقدوا كرسي الوزارة بسبب الصراع الدائر بينه وبين كبار قادة القصر الفاطمي، وقد حاول العودة إلى منصبه عن طريق الاستعانة بالجبهة الإسلامية في بلاد الشام سواء في حلب أم دمشق بيد أنه فشل بسبب تداخل صراع المصالح بين حلب ودمشق، ومن جهة أخرى لم يخرج ما قام به العادل بن السلار وهو علي ابن إسحاق بن السلار الوزير المخلوع عما تعرض له رضوان بن الولخشي. انظر في ذلك رواية شاهد العيان المعاصر لأحداث تلك الفترة: أسامة بن منقذ: الاعتبار، ص١٠-١٨. وأيضاً: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١١٢، ١٢١، ١٣٧-١٤٠،١٥٧-١٧٣،١٨٢-٢٢٤،٢٦١،٢٥١،١٨٩.

([2]) يعد الملك الصالح طلائع ابن رزيك أحد أقوى الوزراء الفاطميين في الطور الأخير للدولة الفاطمية، وقد ولي الوزارة للخليفة الفائز (١١٥٤-١١٦٠م/٥٤٩-٥٥٥هـ) عقب مقتل الخليفة الظافر (١١٤٩-١١٥٤/٥٤٤-٥٤٩هـ)، وكان بين طلائع ابن رزيك والأمير أسامة ابن منقذ الذي كان في بلاط نورالدين آنذاك مودة ومراسلات، وقد حثه ابن رزيك من خلالها على تشجيع نورالدين على التعاون معه لتنسق جهود مهاجمتهما للمملكة الصليبية. انظر عن ذلك: المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص١٧١-٢٠٠، ٢١٤-٢٩٠.

([3]) انظر: أبو شامة: الروضتين،جـ١،ق١،ص٢٨٨-٢٩٨؛ أسامة بن منقذ: ديوان أسامة ابن منقذ، تحقيق: أحمد بدوى، وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة،١٩٥٣م، ص١٥١-٢٢٦، ٢٩٢.

حد سواء[1].

(1) خاض شاور بن مجير السعدي معترك السياسة منذ فترة مبكرة بحيث أصقلته خبرة ومرونة ولذا فإنه كان داهية زمانه وأجاد مراراً وتكراراً حيلة اللعب على توازنات القوى المحيطة، وهو برغم ذلك فارس جواد بما بدا من فترة وزارته الأولى التي لم تدم سوى تسعة أشهر، لم يجد فيها عمارة اليمني من شيء مشين سوى قتله لرزيك بن طلائع، وقد عضد من موقف شاور عشيرته الكبيرة وسياسته المرنة بحيث استطاع في مدة وجيزة أن يكتسب محبة رعاياه خلال ولايته لقوص، وهي من أهم المناصب الإدارية التي تلي الوزارة مباشرة وقد ندم طلائع بن رزيك على تقليده إياها وعبثاً حاول التراجع عن قراره واعتبره إسفيناً في ظهر وزارته، ولم يكن طموح شاور إلى الوزارة خافياً عن بعض رجال بني رزيك قبل أن يصلها شاور، ولكن يؤُخذ عليه ضعفه أمام أبنائه لأنه تركهم يُسيئوُن إليه وإلى رعاياه وبخاصة ابنيه طي والكامل اللذان كانا سبباً في بغض المصريين له ولوزارته. انظر: عمارة اليمني: النكت العصرية، ص١١١،٦٨، ١٢٩- ١٣٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٨١، ٢٨٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٢، ص٤٤٣.

أما ضرغام فإنه كان فارس عصره في الكتابة وكمال الصورة وحسن المحاضرة، وعلى المستوى السياسي كان رجلاً سياسياً بارزاً، وإن لم يكن في حنكة شاور، بيد أنه استطاع الاستفادة من الأخطاء التي ارتكبها شاور لتقليب الرعية عليه، وكان يعتمد كثيراً على أخويه، بل إنهما كانا على غرار ابنا شاور يتحكمون في الدولة وكأنهما شركاء في وزارته. وعلى أية حال فإن وصول ضرغام إلى الوزارة كان على حساب شاور، وباسم بني رزيك؛ إذ كان أحد رجالهم الأقوياء، وأمير فرقة البرقية التي أنشأها طلائع ابن رزيك قبيل انقسامها في وزارة شاور، لكنه كان شكاكاً وقد أفقدته هذه الخلال حب رعاياه، كما نُسب إليه قتل جمع كبير من أمراء البرقية، ظن فيهم مراسلتهم لشاور لإعانته عليه، وبذلك أضعف الدولة. انظر: عمارة اليمني: النكت العصرية، ص٦٧- ١٠٣،٩٧،٧٤-١٠٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٣، ص٢٦٠-٢٧١.